

رِسَالَتُكَ قَدْ آتَتْكَ



إِعْدَاد
صالح أحمد الشامي

دار القلم
دمشق

رَبِّكَ أَتَىٰ قُرْآنًا نَّبِيًّا

إِعْذَاد
صَاحِبِ أَحْمَدَ الشَّامِيِّ

دار الفقه
دمشق



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَسَّسَهَا:
مُحَمَّدٌ عِيسَى وَزَلَّةُ
سنة ١٩٦٧م

دار القلم
دمشق

الطبعة الأولى
١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

حقوق الطبع محفوظة

تُطلب جميع كتبنا من:

دار القلم - دمشق

هاتف: ٢٢٢٩١٧٧ فاكس: ٢٢٥٥٧٣٨ ص.ب: ٤٥٢٣

www.alkalam-sy.com

الدار الشامية - بيروت

هاتف: ٨٥٧٢٢٢ (٠١) فاكس: ٨٥٧٤٤٤ (٠١)

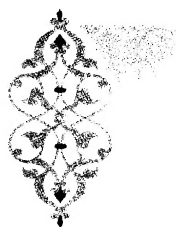
ص.ب: ١١٣/٦٥٠١

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق:

دار البشير - جدة

٢١٤٦١ ص.ب: ٢٨٩٥ هاتف: ٦٦٥٧٦٢١ فاكس: ٦٦٠٨٩٠٤

المقدمة



الحمد لله ربّ العالمين، حمداً طيباً مباركاً فيه، وأفضل الصلاة وأتمّ التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد:

فقد أنزل الله تعالى القرآن الكريم على سيّدنا محمد ﷺ منجّماً - مفرّقاً - في ثلاث وعشرين سنة، ولم ينزله دفعة واحدة، وذلك لحكم كثيرة، نذكر اثنتين منها:

فالعرب أُمَّة أُمِّيَّة لا تعرف القراءة والكتابة، فكان نزول الآيتين والثلاث يسهّل عليهم قضية الحفظ... يومئذٍ.

والأمر الآخر: أنّ الله سبحانه أراد إنشاء هذه الأُمَّة وفقاً لهذا المنهج العظيم الذي جاء به القرآن الكريم، فكان النزول مفرّقاً مساعداً لهم على أمر التطبيق، فما تنزل

الآيات حتى يكون المسلمون قد أتقنوا العمل بما سبق نزوله من الآيات.

فكان حفظ الآيات مسaireً لتطبيقها.

وقد جاء في السُّنة المطهّرة أحاديث كثيرة تحثهم على تلاوة القرآن وحفظه، وتبيّن لهم مقدار الأجر العظيم لمن فعل ذلك.

وهكذا لما توفي الرسول ﷺ كان القرآن محفوظاً ومكتوباً، ومعمولاً به في واقع الناس.

ولما تقدّم الزمن في قرن التابعين استمرّ الناس على اهتمامهم بأمر تلاوة القرآن وحفظه، وبدأ شيء من الفتور في أمر التطبيق؛ الأمر الذي شكّل ظاهرة لفتت نظر الصحابة وعلماء التابعين إلى خطر هذا الموضوع، فارتفعت أصواتهم بالتنبيه على ضرورة العمل بالقرآن كضرورة الحفظ..

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «أُنزِلَ القرآنُ عليهم ليعملوا به، فاتخذوا دراسته عملاً، إنّ أحدهم ليقرأ القرآن من فاتحته إلى خاتمته ما يسقط منه حرفاً، وقد أسقط العمل به»^(١).

(١) المذهب من إحياء علوم الدين: (١/٢٣٠)، طبعة دار القلم.

وقال أبي بن كعب رضي الله عنه: «أَتَّخِذُ كِتَابَ اللَّهِ إِمَامًا، وَارْضَ بِهِ قَاضِيًا وَحَكَمًا»^(١).

واستمرَّ هذا النداء في التابعين.

فهذا محمد بن كعب القرظي - التابعي المشهور - يقول: «مَنْ بَلَغَهُ الْقُرْآنَ، فَكَأَنَّمَا كَلَّمَهُ اللَّهُ، وَإِذَا حَصَلَ ذَلِكَ، لَمْ يَتَّخِذْ دِرَاسَةَ الْقُرْآنِ عَمَلَهُ، بَلْ يَقْرُؤُهُ كَمَا يَقْرَأُ الْعَبْدُ كِتَابَ مَوْلَاهُ الَّذِي كَتَبَهُ إِلَيْهِ لِيَتَأَمَّلَهُ وَيَعْمَلَ بِمَقْتَضَاهُ»^(٢).

إنها كلمات مضيئة، ينبغي التوقف عندها، فإنها تعالج أمراً عظيماً من أمور الأمة، وهو صلتها بكتابها.

وقد رأيت أن أتوقف عند كلمتين منها:

الأولى: لعبد الله بن مسعود رضي الله عنه، إذ قال مخاطباً قارئ القرآن الكريم: «إِذَا سَمِعْتَ اللَّهَ سَبْحَانَهُ يَقُولُ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [البقرة: ١٠٤] فَأَرْعِهَا سَمْعَكَ فَإِنَّهُ خَيْرٌ يَأْمُرُ بِهِ، أَوْ شَرٌّ يَنْهَى عَنْهُ».

وقد يسّر الله لي جمع الآيات المبدوءة بقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ وشرحها وتم إخراجها في

(١) مواظب الصحابة، ص (٢٦١)، نشره المكتب الإسلامي.

(٢) المذهب من إحياء علوم الدين: (٢٣٩/١).



كتاب تحت عنوان: «نداء الإيمان في القرآن الكريم»^(١).

الثانية: كلمة لإمام التابعين الحسن البصري رحمه الله، يقول فيها مخاطباً قراء القرآن في زمنه:

«إن من كان قبلكم رأوا القرآن رسائل من ربهم، فكانوا يتدبرونها بالليل، وينفذونها في النهار»^(٢).

إنها كلمات قليلة، تحمل توجيهاً قيماً ومعلومة عزيزة نادرة، عايشها الحسن البصري، فنقلها إلينا.

هكذا كان جيل الصحابة - خير القرون - يتعامل مع القرآن الكريم..
إنه رسائل..

والرسالة إذا كانت قادمة من محبوب أو عزيز.. يقرؤها الإنسان مرات ومرات، يحاول أن يستخرج ما خلف الكلمات وما خلف السطور من معانٍ وأفكار.. وذلك حسب مكانة المرسل من المرسل إليه.

فإذا كانت الرسالة من الله تعالى خالق الإنسان ومكرمهم إلى الإنسان، فكيف ينبغي أن تكون قراءتها؟!

(١) طبعته دار القلم بدمشق.

(٢) إحياء علوم الدين (٢٧٥/١).



إننا بحاجة ماسة إلى الاقتداء بالصحابة رضي الله عنهم، حتى يكون لقراءة القرآن أثرها في واقعنا الاجتماعي..

وقد حاولت بقدر جهدي الضعيف أن أقرأ القرآن بهذه الطريقة.. وخلال هذه القراءة اخترت عدداً من الرسائل أحببت أن يشاركني الإخوة الكرام الوقوف عندها.

وقد شرحت هذه الآيات الكريمة شرحاً مختصراً معتمداً على تفسيري «ابن كثير» و«الظلال»، ليرجع القارئ الكريم إليه بعد أن يقف أمام الآية محاولاً فهم ما تحمله من معان قبل أن يرجع إلى الشرح، فلعل الله ييسر له من الفهم ما فيه الخير، ثم يعود إلى الشرح إن رغب.

ومن المفيد: العلم بأن في القرآن الكريم أكثر من ستة آلاف آية، وبعض هذه الآيات يحمل الرسالة والرسالتين والثلاث.. وقد يكون العدد من الآيات يحمل رسالة واحدة.

وقد قدمت لهذه الآيات المختارة بفصل تحدثت فيه عن ضرورة توثيق صلتنا بالقرآن الكريم.

وإذا كان «الحسن البصري» هو صاحب الكلمة الباعثة



على كتابة هذه الرسالة، فمن المستحسن أن نذكر له ترجمة مختصرة نتعرف بها عليه.

هذا ما يَسِّرُه الله تعالى وأرجوه - سبحانه - أن ينفع به.

وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

صالح أحمد الشامي

غرة ربيع الأول ١٤٣٦هـ

٢٠١٤/١٢/٢٣م

ترجمة الإمام الحسن البصري عليه السلام



الحسن بن يسار - ويقال له أيضاً: الحسن بن أبي الحسن - أبو سعيد البصري، وُلد لسنتين بقيتا من خلافة عمر رضي الله عنه (سنة ٢١هـ) من أبوين جُلِبَا إلى المدينة من سبي ميسان^(١).

قال الحسن: كان أبي وأمي لرجل من بني النجار، فتزوج امرأة من بني سلمة، فساق أبي وأمي في مهرها، فأعتقتنا السلمية.

وفي رواية أن أباه كان مولى لزيد بن ثابت الأنصاري، وأن أمه كانت مولاة لأم سلمة، زوج النبي ﷺ.

ومهما يكن من أمر، فإن والدَي الحسن كانا رقيقين ثم أُعتقا.

وكانت أمه تخدم أم سلمة، فكانت ترسلها في الحاجة، فتشغل عن ابنها الصغير، فكانت أم سلمة

(١) هي: كورة بين البصرة وواسط.



تشاغله بثدييها، فيدران عليه، فيرضع منهما، فكانوا يرون أن تلك الحكمة والعلوم التي أُوتِيها الحسن من بركة تلك الرضاعة.

نشأ الحسن - إذن - في المدينة، والتقى بالصحابة وسمع منهم.

كان رَحِمَهُ اللهُ وسيماً جميلاً، حتى كان ذلك علامة مميزة له، فقد قال الشعبي لرجل يريد قدوم البصرة: إذا نظرت إلى رجل أجمل أهل البصرة وأهيبهم فهو الحسن، فأقرئه مني السلام.

وكان من الشجعان الموصوفين، وكان المهلب بن أبي صفرة إذا قاتل المشركين يقدّمه.

قال محمد بن سعد: كان الحسن رَحِمَهُ اللهُ جامعاً عالماً، ربيعاً، فقيهاً، ثقة، حجة، مأموناً، عابداً، ناسكاً، كثير العلم، فصيحاً، جميلاً.

وكان خطيباً فصيحاً، بل هو من أفصح الناس^(١).

(١) هذه الترجمة ملخصة من: «سير أعلام النبلاء» ٥٦٣/٤ وما بعدها، و«البداية» ٢٦٦/٩ وما بعدها. وغيرهما.



علمه ووعظه:

كان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ المقدم في علمه، حتى أطلق عليه لقب «شيخ البصرة».

فقد كان فقيهاً، محدثاً، مفسراً.. وأقواله منثورة في كتب الفقه والتفسير، وكذلك مروياته من الأحاديث منثورة في كتب الحديث.

وقد كان واعظاً متمكناً، له تأثيره على القلوب، ولعل هذا الجانب هو الذي غلب على شهرته.

وهو في وعظه مطبّق لما يدعو الناس إليه، وهذا ما جعل له القبول في القلوب.

وقد تحدث مالك بن دينار، عن الذين كان لهم الأثر في القلوب فقال: «بلى والله، لقد رأيناهم: الحسن، وسعيد بن جبير، وأشباههم، الرجل منهم يحيي الله بكلامه الفئام^(١) من الناس.

وقال الأعمش: ما زال الحسن البصري، يعي الحكمة حتى نطق بها، وكان إذا ذكر عند أبي جعفر، محمد بن علي بن الحسين الباقر، قال: «ذاك الذي يشبه كلامه كلام الأنبياء».

(١) الفئام: الجماعة من الناس.

وقال الغرالي: «كان الحسن البصري أشبه الناس كلاماً بكلام الأنبياء، وأقربهم هدياً من الصحابة».

ومن الكلمات الدقيقة الصادقة في تصويرها للحسن في وعظه، ما قال مطر الوراق في ذلك: «لما ظهر الحسن جاء كأنما كان في الآخرة، فهو يخبر عما عاين».

سلوكه وزهده:

قال أبو بردة بن أبي موسى الأشعري: «ما رأيت أحداً أشبه بأصحاب محمد ﷺ منه».

وقال خالد بن صفوان: لما لقيت مسلمة بن عبد الملك بالحيرة، قال: يا خالد، أخبرني عن حسن أهل البصرة؟ قلت: أصلح الله الأمير، أخبرك عنه بعلم، أنا جاره إلى جنبه، وجليسه في مجلسه، وأعلم من قبلي به:

«أشبه الناس سريرة بعلانية، وأشبه قولاً بفعل، إن قعد على أمر قام به، وإن قام على أمر قعد عليه، وإن أمر بأمرك كان يعمل الناس به، وإن نهى عن شيء كان أترك الناس له، رأيت مستغنياً عن الناس، ورأيت الناس محتاجين إليه».

قال: حسبك يا خالد، كيف يضل قوم هذا فيهم؟!

وكان الحسن دائم الأحزان، فقد غلب عليه ذكر
الآخرة، ولكنَّ هذا لم يوصله إلى السلوك الأعجمي الذي
بدأ يتنفّس في زمنه.

فقد كان معتدلاً في طعامه، قال أبو هلال: «قلما
دخلنا على الحسن؛ إلا وقد رأينا قدراً يفوح منه ريح
طيبة».

بل كان له عناية بالفاكهة، وهي من النوافل في أمر
الطعام، قال قتادة: «دخلنا على الحسن وهو نائم، وعند
رأسه سلة، فجذبناها، فإذا فيها خبز وفاكهة، فجعلنا نأكل،
فانتبه فرآنا، فسره فتبسم وهو يقرأ: ﴿أَوْ صَدِيقُكُمْ﴾
[النور: ٦١].

كما كان متأنقاً في ملبسه. قال يونس: «كان الحسن
يلبس في الشتاء قباءً حبرة، وطيلساناً كردياً، وعمامة
سوداء، وفي الصيف إزارَ كتان، وقميصاً وبرداً حبرة».

وقال سلام بن مسكين: رأيت على الحسن قباءً مثل
الذهب يتألق.

والذي يبدو أنه كان يلبس ما تيسر له، وقد سئل عن
رأيه في أحب اللباس فقال: أغلظه وأخشنه، وأوضعه عند
الناس.



وهذا لا يعني إقراره لبعض النساك في ذهابهم إلى قصد الخشونة في اللباس، بل كان ينكر عليهم، فقد ذكر عنده الذين يلبسون الصوف، فقال: ما لهم؟ تفاقدوا^(١)... أكنّوا الكِبَرُ في قلوبهم..

وأما أثاث بيته فكان متواضعاً. قال مطر الوراق: دخلنا على الحسن نعوّده، فما كان في البيت شيء، لا فراش ولا بساط ولا وسادة ولا حصير؛ إلا سرير مرمول^(٢) هو عليه.

وهذه الصورة تذكرنا بالصورة التي نقلها لنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم عندما قال:

(فدخلتُ على رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا هو مضطجع على رمال حصير، ليس بينه وبينه فراش، قد أثر الرمال بجنبه، متكئاً على وسادة من آدم حشوها ليف.. فرفعتُ بصري في بيته، فوالله ما رأيت في بيته شيئاً يردُّ البصر..)^(٣).

وإذن فقد كان الحسن بفعله هذا متأسياً برسول الله صلى الله عليه وسلم.

(١) هذا دعاء عليهم بأن يفقد بعضهم بعضاً.

(٢) أي: سرير نسج من حصير.

(٣) متفق عليه. وقد تكررت الصورة نفسها في فعل عمر رضي الله عنه.

وكان محل إجماع العلماء - في زمنه وما بعده - في الثناء عليه، وكانوا يتناقلون أخباره في حياته.

قال أبو بكر الهذلي: قال لي السفاح: بأي شيء بلغ حسنُكم ما بلغ؟ فقلت: جمع القرآن وهو ابن اثنتي عشرة سنة، ثم لم يخرج من سورة إلى غيرها حتى يعرف تأويلها، وفيما أنزلت، ولم يقلب درهماً في تجارة ولا ولي سلطاناً، ولا أمر بشيء حتى يفعله، ولا نهى عن شيء حتى ودعه.

وفاته:

عن أبان بن محبر قال: لما حضر الموت الحسن دخل عليه رجال من أصحابه فقالوا له: يا أبا سعيد، زودنا منك كلمات تنفعنا بهن.

قال: إني مزودكم ثلاث كلمات، ثم قوموا عني ودعوني لما توجهتُ له: ما نُهيتم عنه من أمر، فكونوا من أترك الناس له، وما أُمِرتُم به من معروف فكونوا من أعمل الناس به، واعلموا أنَّ خطاكم خطوتان: خطوة لكم وخطوة عليكم^(١)، فانظروا أين تغدون وأين تروحون.

(١) أعطى الإسلام الوسائل حكم الغايات، فخطوات كل إنسان نوعان: فما كان في سبيل الخير كالذهاب إلى الصلاة فهو مثاب عليه، وما كان في سبيل الشر ففيه الإثم.



وقال صالح المري: دخلتُ على الحسن وهو في الموت، وهو يكثر الاسترجاع^(١)، فقال له ابنه: أمثلك يسترجع على الدنيا^(٢)؟ قال: يا بني، ما أسترجع إلا على نفسي التي لم أصب بمثلها قط.

وكانت وفاة الحسن عليه السلام ليلة الجمعة في أول رجب من سنة عشر ومائة، وقد عاش كما قال ابنه، نحواً من ثمان وثمانين سنة.

وكانت جنازته مشهودة وصُلِّي عليه عقيب صلاة الجمعة بالبصرة، فشيعه الخلق وازدحموا عليه.

قال حميد الطويل: وحملناه بعد صلاة الجمعة ودفناه، فتبع الناس كلهم جنازته واشتغلوا به، فلم تقم صلاة العصر بالجامع، ولا أعلم أنها تركت منذ كان الإسلام إلا يومئذٍ، لأنهم تبعوا كلهم الجنازة، حتى لم يبق بالمسجد من يصلي العصر.

فرحم الله الحسن وأسكنه فسيح جناته.



(١) هو قول: إنا لله وإنا إليه راجعون، وقد جاء في ذلك قوله تعالى:

﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦].

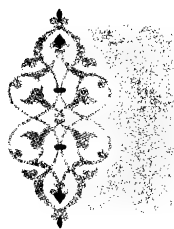
(٢) ظن الابن أن أباه يسترجع بسبب ما فاتته من الدنيا بسبب الموت.



الفصل الأول

توثيق الصلاة بالقرآن الكريم

تمهيد



«نحن أحوج ما نكون إلى الإحساس بالقرآن ورؤيته كائناتاً حياً دافعاً، فقد بُعد العهد بيننا وبين الحياة الإسلامية، والواقع الإسلامي.

وانفصل القرآن في حسنا عن واقعه التاريخي الحي. ولم نعد نذكر أنه كان هو «الأمر اليومي» للمسلم، وهو التوجيه الذي يتلقاه للعمل والتنفيذ.

مات القرآن في حسنا.. أو نام، ولم تعد له تلك الصورة الحقيقية التي كانت له عند نزوله في حس المسلمين.

ودرجنا على أن نتلقاه إما ترتيباً منغماً نظرب له، أو نتأثر التأثير الوجداني الغامض السارب، وإما أن نقرأه أوراذاً، أقصى ما تصنع في حس المؤمنين الصادقين منا أن تنشئ في القلب حالة من الوجد أو الراحة أو الطمأنينة المبهمة المعجولة.. والقرآن ينشئ هذا كله.



ولكن المطلوب - إلى جانب هذا كله - أن ينشئ في المسلم وعياً وحياءً، نعم المطلوب أن ينشئ حالة وعي يتحرك معها القرآن حركة الحياة التي جاء لينشئها..

المطلوب أن يتوجه إليه المسلم لسمع منه ماذا ينبغي أن يعمل - كما كان المسلم الأول يفعل - وليدرك حقيقة التوجيهات القرآنية فيما يحيط به اليوم من أحداث ومشكلات وملابسات شتى في الحياة»^(١).

وفي سبيل إدراك هذه الغاية، كانت هذه الرسالة، وهي جهد المقل.



فضل تلاوة القرآن الكريم



قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تَجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴾ [فاطر: ٢٩].

- وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: (لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن فهو يتلوه آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالا فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار) متفق عليه.
- وعن عثمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (خيركم من تعلم القرآن وعلمه) رواه البخاري.
- وعن عائشة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ قال: (مثل الذي يقرأ القرآن، وهو حافظ له، مع السفرة الكرام البررة، ومثل الذي يقرأ، وهو يتعاهده، وهو عليه شديد، فله أجران) متفق عليه.



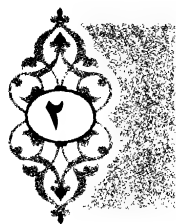
• وعن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه) رواه مسلم.

• وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ (من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول (ألم) حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

• وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إن لله أهلين من الناس) قالوا: يا رسول الله، من هم؟ قال: (هم أهل القرآن، أهل الله وخاصته) رواه أحمد وابن ماجه والدارمي، وقال الألباني: صحيح.

إن هذه النصوص الكريمة - وغيرها كثير - لتؤكد فضل تلاوة القرآن الكريم وعظم ثوابها، فلا أثنى من وقت يقضيه المسلم في تلاوة كلام ربه تعالى في خضوع وهو يستشعر عظمة الله واطلاعه عليه وسماعه لتلاوته.

كيفية القراءة



ينبغي لقارئ القرآن أن يرتل قراءته، وقد جاء الأمر بذلك في قوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ [المزل: ٤].

والترتيل، هو القراءة على تودة وتبيين حروف.

- وقد نعت أم سلمة رضي الله عنها قراءة رسول الله ﷺ: أنها كانت قراءة مفسرة حرفاً حرفاً. رواه أبو داود والنسائي والترمذي.

- وعن عبد الله بن المغفل المزني قال: رأيت رسول الله ﷺ يوم الفتح على ناقة له يقرأ سورة الفتح، قال: فرجع فيها. متفق عليه.

وقد كره الصحابة رضي الله عنهم الإسراع في القراءة.

- ففي الحديث المتفق عليه، عن أبي وائل قال: جاء رجل إلى ابن مسعود، فقال: قرأت المفصل الليلة في ركعة، فقال ابن مسعود: هذا كهذا الشعر. والهد: شدة الإسراع والإفراط في العجلة.



• وفي رواية لمسلم، قال ابن مسعود: هذا كهذا الشعر؟
إن أقواماً يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم، ولكن إذا
وقع في القلب فرسخ فيه، نفع.

• وفي البخاري عن قتادة قال: سئل أنس: كيف كانت
قراءة النبي ﷺ؟ فقال: كانت مدأ، ثم قرأ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ
الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ يمد (بسم الله) ويمد بـ (الرحمن) ويمد
بـ (الرحيم).

• وفي المسند: عن ابن أبي مليكة، عن بعض أزواج
النبي ﷺ - قال نافع: أراها حفصة - أنها سئلت عن
قراءة رسول الله ﷺ فقالت: إنكم لا تستطيعونها، قال:
فقل لها: أخبرينا بها، قال: فقرأت قراءة ترسلت فيها.
قال نافع: فحكى لنا ابن أبي مليكة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ
الْعَالَمِينَ﴾ ثم قطع ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ثم قطع
﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ رجاله رجال الشيخين.

إن الآية الكريمة والأحاديث التي بعدها تبين كيف
ينبغي أن تكون قراءة القرآن، وهي: أن تكون آية آية،
واضحة الكلمات مع مراعاة المدود.

تحسين الصوت بالقراءة



من المتفق عليه بين العلماء: أن تحسين الصوت بقراءة القرآن أمر مطلوب مرغوب فيه، وقد جاءت الأحاديث مقررّة لذلك داعية إليه.

• ففي الحديث المتفق عليه، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: (ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت بالقرآن يجهر به).

وفي رواية للبخاري: (ليس منا من لم يتغنّ بالقرآن).
• وعن البراء بن عازب قال: قال رسول الله ﷺ: (زينوا القرآن بأصواتكم) رواه أحمد وأبو داود وغيرهما.

• وعنه قال: سمعت رسول الله ﷺ قرأ في العشاء بالتين والزيتون، فما سمعت أحسن صوتاً منه، متفق عليه.



• وعن بريدة قال: قال رسول الله ﷺ: (إن عبد الله بن قيس - أو الأشعري - أُعطي مزماراً من مزامير آل داود) رواه مسلم.

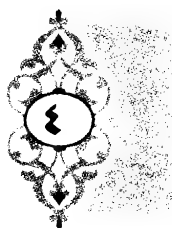
• وعن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: (إن من أحسن الناس صوتاً بالقرآن، الذي إذا سمعتموه يقرأ، حسبتهموه يخشى الله) رواه ابن ماجه.

إن تحسين الصوت بالقرآن أمر مطلوب.

وهذا يؤكد ما سبق في الفقرة السابقة من ترتيل الآيات، فتحسين الصوت لا يتأتى مع سرعة القراءة.



مقدار القراءة



كانت صلة النبي ﷺ وثيقة بالقرآن الكريم، فبالإضافة إلى القراءة في الصلوات، كان يقرأ كل يوم قدراً معيناً من القرآن الكريم، ففي حديث أوس بن حذيفة، وهو واحد من وفد ثقيف: أنه ﷺ كان يأتي إليهم كل يوم، وتأخر في يوم فسئل عن سبب ذلك فقال: (إنه طرأ عليّ حزبي من القرآن، فكرهتُ أن أخرج حتى أتمّه) رواه أبو داود وابن ماجه.

والمعنى أنه طرأ عليه ﷺ ما منعه عن القراءة في الوقت الذي خصّصه لذلك، فقرأه بعد ذلك فكان سبباً لتأخره.

وقد فعل الصحابة كما فعل ﷺ فكان لكلّ منهم حظه الذي خصّصه لنفسه، والتزم بقراءته كل يوم، حتى كان ذلك حديثاً متداولاً بينهم.



فقد التقى معاذ وأبو موسى، فقال معاذ: يا عبد الله، كيف تقرأ القرآن؟ قال: أتفوقه تفوقاً - أي: أأزعم قراءته ليلاً ونهاراً شيئاً بعد شيء وحيناً بعد حين - فقال أبو موسى: فكيف تقرأ أنت يا معاذ؟ قال: أنام أول الليل، فأقوم فأقرأ ما كتب الله لي. رواه البخاري.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: (من نام عن حربه أو عن شيء منه، فقرأه فيما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر، كُتِبَ له كأنما قرأه من الليل) رواه مسلم.

والحديث يؤكد أنَّ الالتزام بحزبٍ من القرآن كلَّ يوم كان أمراً معمولاً به من كلِّ الصحابة بدلالة عموم الخطاب في هذا الحديث، وأن موعداً قراءته كان ليلاً قبل النوم يختم المسلم به يومه..

وليس بين أيدينا نصٌّ يحدّد مقدار هذه القراءة، وإنما هو أمر متروك للمسلم، فهو الذي يحدد هذا المقدار وفقاً لقدرته ونشاطه، يدلُّنا على ذلك ما جاء عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه في قصته المشهورة.

قال عبد الله: أنكحني أبي امرأة ذات حسب، فكان يتعاهد كُنته فيسألها عن بعلها، فتقول: نِعَم الرجل من رجل



لم يطأ لنا فراشاً، ولم يفتّش لنا كنفاً منذ أتيناها، فلما طال ذلك عليه، ذكر للنبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: (القني به) فلقيته بعد، فقال: (كيف تصوم؟) رواه البخاري.

وفي هذه القصّة ناقش الرسول ﷺ عبد الله في صيامه الذي يتطوّع به، وكذلك في أمر صلاته من الليل، وفي مقدار قراءته للقرآن.

وأخرج الترمذي وأبو داود أن كان من حديثه ﷺ أن قال له: (اقرأ القرآن في أربعين يوماً)، وفي رواية البخاري ومسلم: فقال عبد الله: إني أطيق أفضل من ذلك، فقال: (اقرأ القرآن في شهر).

وكأنني به ﷺ عندما بدأ معه من (الأربعين يوماً) إنما فعل ذلك ليلبي طموحه ورغبته في الإكثار من القراءة بعد ما عرف من قصته، وحبّه للعكوف على العبادة، وإلا فمن الممكن أن تكون قراءة القرآن في ستين يوماً أو أقل أو أكثر.

وخلاصة القول: إنّ المسلم مطلوب منه أن يكون على صلة يومية بالقرآن الكريم، ومقدار القراءة متروك له تحديده، وإن كان من المستحسن أن يكون في أربعين يوماً أو في شهر كما ورد في الأحاديث الشريفة.



وما ذاك إلا ليكون على صلة دائمة بتشريعه الذي أنزله
الله له، ولا يطول عليه الأمد فينساه.. فاستمرار التكرار
يجعل للتشريع حضوراً دائماً في الذهن.. فيظل الضابط
للأعمال قائماً.





وإذا كانت تلاوة القرآن أمراً مطلوباً في كلِّ يوم - كما رأينا - فيحسن بنا أن نذهب إلى السلف الصالح لتعلّم منهم كيف كانوا يقرؤون القرآن، وما هي نصائحهم في هذا الموضوع.

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: إنَّ هذه القلوب أوعية؛ فاشغلوها بالقرآن، ولا تشغلوها بغيره^(١).

وقال عثمان رضي الله عنه: إني لأكره أن يأتي عليَّ يوم لا أنظر فيه إلى عهد الله، يعني المصحف^(٢).

وقال أبو أمامة رضي الله عنه: اقرؤوا القرآن ولا تغرنكم هذه المصاحف المعلقة، فإن الله لا يعذب قلباً هو وعاء للقرآن^(٣).

(١) الزهد، للإمام أحمد، ص (٢٠١).

(٢) المصدر السابق، ص (١٥٩).

(٣) المصدر السابق، ص (٢٥٣)، ومعنى المعلقة: المكتوبة.



وقال عمر رضي الله عنه: اقرؤوا القرآن تُعرفوا به، واعملوا به تكونوا من أهله ^(١).

وقال رجل لأبي بن كعب رضي الله عنه: أوصني؟

فقال: اتخذ كتاب الله إماماً، وارض به قاضياً وحكماً، فإنه الذي استخلف فيكم رسولكم، شفيع مطاع، وشاهد لا يتهم، فيه ذكركم وذكر من قبلكم، وحكم ما بينكم، وخبركم وخبر ما بعدكم ^(٢).

وإذا كانت هذه الأقوال تحثُّ على الصلة بالقرآن الكريم وتلاوته؛ فإن المقصود من التلاوة العمل، وهذا ما فهمه الصحابة رضي الله عنهم والتابعون لهم بإحسان.

جاء في المسند عن عطاء، عن أبي عبد الرحمن قال: حدثنا من كان يقرئنا من أصحاب النبي ﷺ أنهم كانوا يقترون من رسول الله ﷺ عشر آيات، فلا يأخذون في العشر الأخرى حتى يعلموا ما في هذه من العلم والعمل، قالوا: فعلمنا العلم والعمل.

(١) البيان والتبيين، للجاحظ (٧٠/٢).

(٢) حلية الأولياء (٢٥٣/١).

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: أنزل القرآن ليعمل به، فاتخذتم دراسته عملاً، وسيأتي قوم يثقفونه مثل القناة، ليسوا بخياركم^(١).

وقال الحسن البصري:
قال الله عز وجل: ﴿كَتَبْنَا الْقُرْآنَ لِتُدْرَسَ مِنْهُ خِطَابٌ لِقَوْمٍ يُنْذَرُونَ﴾ [ص: ٢٩].

وما تدبر آياته إلا اتباعه، أما والله ما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: قد قرأت القرآن كله، فما أسقطت حرفاً واحداً، وقد - والله - أسقطه كله، ما يرى له القرآن في خلق ولا عمل^(٢).

وقال الحسن أيضاً: حملة القرآن ثلاثة نفر:

١ - رجل اتخذه بضاعة، ينقله من مصر إلى مصر، يطلب به ما عند الناس.

٢ - ورجل حفظ حروفه وضيّع حدوده، واستدرّ به الولاة واستطال به على أهل بلده، وقد كثر هذا الضرب من حملة القرآن، لا كثرهم الله عز وجل.

(١) إحياء علوم الدين (١/٨٥).

(٢) البداية والنهاية (٩/٢٧٠).



٣ - ورجل قرأ القرآن، فوضع دواءه على داء قلبه، فسهر ليله، وهملت عيناه، تسربل الخشوع، وارتدى الوقار، واستشعر الحزن.. والله لهذا الضرب من حملة القرآن أقل من الكبريت الأحمر، بهم يسقي الله الغيث، وينزل النصر، ويدفع البلاء^(١).

وقال الحارث المحاسبي:

إخواني! إذا تلا الناس كتاب الله لفضل ثوابه، ألا فأريدوا بتلاوتكم التدبُّر والاعتبار بأمثاله وعجائبه، ووعدده ووعيده، وأمره ونهيهِ، وحرامه وحلاله، والعمل بحدوده وفرائضه، فإن ذلك أبلغ في رضوان الله تعالى.

يا قوم! إنكم ما عملتم بحدود القرآن، وصلتم إلى أجزل الثواب، وأعلى المنازل عند الله، وإن ضيَّعتَ حدوده، وتلوتموه للثواب، خشيتُ أن يفوتكم الثواب بحدوده، فكم تالٍ له يتبرأ القرآن منه غداً.. أعاذنا الله وإياكم من ذلك^(٢).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ:

لا شيء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبر والتفكير، وهذه كانت عادة السلف، يردد أحدهم الآية إلى الصباح،

(١) العقد الفريد (٨٩/٢).

(٢) الوصايا، للمحاسبي، ص (١٠٧).



وقد أنزل الله القرآن ليتدبر ويتفكر فيه، ويعمل به، لا لمجرد تلاوته مع الإعراض عنه^(١).

نخلص مما سبق:

إلى أن السلف مجمعون على أن المطلوب في تلاوة القرآن أن تكون بتدبر وإمعان فكر، وهو الأمر الذي يؤدي إلى العمل.

والعمل هنا نوعان:

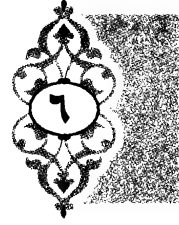
الأول: أن يعمل بما يقرأ: وفي ذلك يقول ابن القيم: التلاوة الحقيقية هي تلاوة المعنى واتباعه، تصديقاً بخبره، وائتماراً بأمره، وانتهاء عن نهيه، وائتماماً به، حيث ما قادك انقذت معه^(٢).

الثاني: التأكد من الأعمال التي قام بها أنها مطابقة لما أمر به القرآن الكريم: فإن لم تكن كذلك ووجد خللاً فيما عمل، استفاد من التلاوة العودة إلى ذلك العمل وتصحيحه. إنهما أمران - تثمرهما تلاوة القرآن -: الحث على العمل ابتداءً، والرقابة على العمل بعد ذلك.

(١) مفتاح دار السعادة (١/٥٥٤).

(٢) المصدر السابق (١/٢٠٢).

التلاوة المثمرة



إنَّ تحقيق هذه الرقابة من القرآن الكريم على العمل لا تكون إلا إذا كانت «التلاوة» مثمرة، وهي التي تكون لها آثارها الملموسة في واقع الإنسان، وواقع الناس، وهي التي تتوفّر فيها مواصفات القبول، والتي سبق ذكر بعضها:

ومنها: الصلة الدائمة بالقرآن الكريم بحيث يكون له في كلِّ يوم جلسة مع كتاب الله تعالى، كما قال عثمان رضي الله عنه:
 إني لأكره أن يأتي عليَّ يوم لا أنظر فيه إلى عهد الله.

وهذا إنما يتوفّر إذا ألزم المسلم نفسه بهذه الصلة بغضِّ النظر عن المقدار المتلو كل يوم، كما سبق الحديث عن ذلك، فله أن يقرأ القرآن في شهر أو في شهرين أو أكثر من ذلك، والمهم عدم الانقطاع.. وإذا حصل ذلك بعامل الضرورة استدرك قسط ذلك اليوم في اليوم الذي يليه.



ومنها: التدبر والتفكير وإمعان النظر في الآيات
المتلوّة، فإنّما - هي رسائل - كما قال الحسن
البصري رحمّه الله - من الله تعالى إلى عباده.

وكلّ منا يعلم كيف يقرأ الرسالة إذا أثنّه ممن يحبّ،
فربما كرر النظر فيها مرات ومرات يستبطن ما وراء
الأحرف من معاني.

فإذا كانت هذه الرسالة من خالقه ورازقه؛ فكيف ينبغي
أن تكون هذه القراءة؟!

ومنها: جمع القلب والحضور الذهني والقلبي
والروحي عند التلاوة.

قال ابن القيم: «إذا أردت الانتفاع بالقرآن، فاجمع قلبك
عند تلاوته وسماعه، وألقِ سمعك، واحضر حضور من
يخاطبه به من تكلم به سبحانه منه إليه، فإنه خطاب منه لك
على لسان رسوله؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ
كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

فقوله: ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي: شاهد القلب، حاضر غير
غائب، قال ابن قتيبة: استمع كتاب الله وهو شاهد القلب
والفهم، ليس بغافل ولا ساهٍ^(١).

(١) الفوائد، لابن القيم، ص (٥ - ٦).



ذلك بعض ما ينبغي من أجل تلاوة مثمرة، وفي مقدمة
ذلك استشعار القارئ قداسة الكلام الذي يقرؤه، وأنه كلام
الله تعالى، وأنه المخاطب به.



التحذير من هجر القرآن



وعندما لا تتوفر هذه المواصفات، فإنَّ المسلم ربما وقع في دائرة هجر القرآن، وقد قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠].

والآية الكريمة وإن كانت في حق الكافرين الذين رفضوا الاستماع لكلام الله تعالى، فإن بعض معناها يقع على بعض المسلمين.

إن بعض المسلمين لا يقرؤون القرآن إلا في شهر رمضان؛ أليس هذا من الهجر؟!

وقد يكون الهجر في صور أخرى:

«منها: هجر سماعه والإيمان به والإصغاء إليه.

ومنها: هجر العمل به والوقوف عند حلاله وحرامه، وإن قرأه وآمن به.



ومنها: هجر تحكيمه والتحاكم إليه في أصول الدين وفروعه.

ومنها: هجر تفهّمه وتدبّره ومعرفة ما أراد المتكلم به منه.

ومنها: هجر الاستشفاء والتداوي به في جميع أمراض القلوب وأدوائها.

فكل هذا داخل في الآية الكريمة، وإن كان بعض الهجر أهون من بعض^(١).

وقد ظهرت أنواع من الهجر هي أشد خطراً مما سبق ذكره..

فقد وجد بين المسلمين من يصلي ويصوم، ويعتقد أن الأنظمة والقوانين التي يسئها الناس أفضل من شريعة الإسلام!.. وينضم إلى المطالبين بإبعاد الإسلام عن الحكم!.. أليس هذا من الهجر؟!

ووجد بين المسلمين، من يظاهر أعداءهم عليهم والقرآن الكريم يقول: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١].

(١) الفوائد، لابن القيم، ص (١٥٦).



أليس هذا من الهجر؟!

ووجد بين المسلمين من يستهزئ بالإسلام، ويعدُّ نفسه من المسلمين..

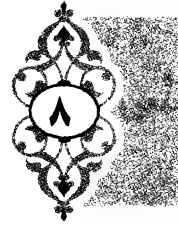
أليس هذا من الهجر؟! بلى وسببه الهجر.

نعوذ بالله من الخذلان.

إن البعد عن كتاب الله تعالى والانقطاع عنه يؤدي إلى مثل هذه الحالات التي تحاكي المناسبة التي نزل فيها قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠].



أدب استماع القرآن



قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

إن الآية الكريمة توجه إلى السلوك الذي ينبغي على مستمع القرآن أن يفعله، وهو «الاستماع والإنصات» وعدم الكلام واللغو... فإذا فعل ذلك كان محلاً للرحمة من الله تعالى.

وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن هذا الإنصات المطلوب هو في الصلاة إذا قرأ الإمام في الصلاة الجهرية.

وليس في النصّ ولا أسباب النزول ما يخصص الآية بالصلاة، بل هي عامة، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وقد جاء في السُّنَّة ما يؤيد هذا العموم.



وهل يتصور إذا كان الناس في لغو وكلام وهرج ومرج أثناء قراءة قارئ القرآن الكريم أن يكونوا محلاً لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾؟!

إنه ليس من الأدب إذا كنت في مجلس وأحدهم يتكلم أن تنصرف عن الاستماع له فكيف إذا كان كلام الله تعالى هو المتلو؟!

وقد استمع رسول الله ﷺ إلى عبد الله بن مسعود.

ففي الحديث المتفق عليه، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: (اقرأ عليّ) قال: قلت: أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: (فإني أحب أن أسمع من غيري) قال: فقرأت النساء حتى إذا بلغت ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] قال لي (حسبك الآن) فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان.

وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال لأبي موسى الأشعري: (لو رأيته وأنا استمع لقراءتك البارحة، لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود).

وفي السنن الكبرى للبيهقي: عن أبي سلمة قال: كان عمر رضي الله عنه إذا جلس عند أبي موسى قال: ذكّر يا أبا موسى، فيقرأ.



وإذا كانت الغاية من القراءة هي التدبر والفهم ثم العمل، فإن هذا يحصل من الاستماع بل ربما وفي بعض الأحيان قد يكون المستمع أكثر تدبراً من القارئ.

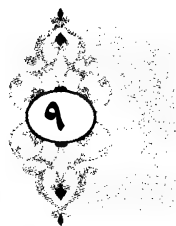
وفي المسند: عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: (من استمع إلى آية من كتاب الله ﷻ كتب له حسنة مضاعفة، ومن تلاها كانت له نوراً يوم القيامة).

وفي سنن الدارمي عن ابن عباس قال: «من استمع إلى آية من كتاب الله كانت له نوراً».

إن الاستماع إلى كلام الله تعالى هو قرين القراءة والله أعلم.



الأدب مع القرآن



إن الصلة بالقرآن أمر واجب على كل مسلم؛ بحيث لا يدخل في عداد الذين هجروا القرآن، وأن يكون في صلته هذه مستشعراً عظمة هذا الكتاب وقداسته، فيتعامل معه بالأدب، ويقرؤه بأدب يتناسب مع مكانته.

ويحسن أن نذكر ببعض هذه الآداب في كل من الأمرين:

- أما الأدب مع القرآن الكريم: فيبدأ من إدراك المسلم أن هذا الكتاب يختلف عن كل الكتب الأخرى؛ فهو كلام رب العالمين، الذي نزل به جبريل الأمين، على قلب سيد المرسلين، ولهذا فينبغي أن يكون التعامل معه في غاية من الأدب والاحترام.

وقد نصَّ القرآن الكريم نفسه على أول هذه الآداب بقوله: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٩].



وجاءت السُّنَّة المطهرة لتقول: (ولا يمس القرآن إلا طاهر) فعلى المسلم إذا أراد الإمساك بالقرآن... أن يكون على طهارة كاملة... أي: أن يكون متوضئاً.

وقد تحدّث الفقهاء عن آداب أخرى:

منها: أن يكون المكان الذي يوضع فيه المصحف مكاناً مكرماً محترماً، مرتفعاً عن الأرض.

ومنها: أنه إذا كان بين مجموعة من الكتب، فلا يوضع كتاب فوقه، بل يكون المصحف فوق غيره، وهو الأعلى.

ومنها: أنه إذا كان في جهة من البيت، فلا ينبغي أن تبسط الأرجل في اتجاهه، وإذا كان في غرفة النوم فليكن على الجهة اليمنى أو اليسرى للنائم أو في جهة رأسه، ولا يكون في الجهة التي تمتد إليها الأرجل.

ويدخل في هذا المعنى: أنه قد حدثت ظاهرة جديدة في المساجد، وهي وضع مكاتب خشبية منخفضة قريبة من الأرض لتكون قريبة من يد الجالس في المسجد، توضع عليها المصاحف، فيأتي بعض من لم يتعلم الأدب مع القرآن فيجلس الواحد منهم ويمد رجليه، وتصبح المسافة بين قدميه والمصحف الذي أمامه لا تتجاوز «القدم» أو أكثر قليلاً! وهذا من سوء الأدب.



إنني لا أستطيع أن أذكر كلّ الحالات التي يكون الأدب فيها مع القرآن متوفراً، ولكني أقول: هي قضية تقوم في نفس المسلم تجعله حسن التصرف مع الكتاب الكريم في كلّ حالة بالشكل الذي يتناسب معها... وأن نربّي أولادنا على ذلك.

• وأما الأدب عند تلاوة القرآن: فقد سبق ذكر جملة من ذلك، ويحسن بنا أن نضع بين الأيدي جملة ما ينبغي على سبيل الاختصار:

١ - أن تكون جلسة القارئ مؤدّبة تتناسب مع مقام المناجاة، فقارئ القرآن مناجٍ لله تعالى بكلامه، ولعل أفضل ذلك تلك الجلسة التي جلسها جبريل عليه السلام بين يدي الرسول ﷺ عندما سأله عن الإسلام.. وهي كالجلسة بين السجدين في الصلاة.

٢ - أن يكون القارئ على وضوء، حتى ولو كان يقرأ من حفظه وليس القرآن بين يديه.

٣ - استقبال القبلة في جلسته إذا أمكن.

٤ - طهارة المكان الذي يجلس فيه القارئ.



٥ - استحضار عظمة الكلام الذي يتلوه، وعظمة المتكلم سبحانه، وليشعر أنه المخاطب بذلك.. فالمقصود العمل..

٦ - الاستعاذة عند البدء، قال تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ [النحل: ٩٨].

٧ - حضور الذهن وتدبر الآيات ومحاولة فهم المعنى، وقد يسر الله ذلك لمن قصده.

٨ - الخشوع أثناء التلاوة.

٩ - ترتيل الآيات، والجهر بها، وتحسين الصوت بالقراءة.. وكل ذلك ورد الأمر به في الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة.

١٠ - الإمساك عن القراءة عند التثاؤب.

١١ - عدم قطع القراءة إلا لحاجة.

١٢ - أن يقف على آية الوعد فيسأل الله ﷻ، ويقف على آية الوعيد فيستعيز بالله سبحانه.

١٣ - إذا كان في المكان عدد من القراء، فلا يجهر بعضهم فيشوش على الآخرين، بل تكون القراءة بحيث يسمع نفسه.



١٤ - ألا تكون القراءة في الأسواق وأماكن اللغو.. حيث لا يتوفر التقدير والاحترام للقراءة والقارئ.



الخلاصة



كانت تلك جولة مقتضبة عن كتاب الله تعالى؛
ليبان أنه مصدر المعلومات عن هذا الدين
الحنيف.

وبعد:

فمن أراد أن يعرف وحدانية الربّ تعالى وأسماءه
وصفاته؛ فليقرأ القرآن الكريم.

ومن أراد أن يعرف الدين الذي ارتضاه الله تعالى
 لعباده؛ فليقرأ القرآن الكريم.

ومن أراد أن يعرف الإسلام والإيمان والإحسان؛
 فليقرأ القرآن الكريم.

ومن أراد أن يعرف النبي محمداً ﷺ^(١)؛ فليقرأ القرآن الكريم.

ومن أراد إجابةً على أسئلته بشأن عالم الغيب؛ فليقرأ القرآن الكريم.

ومن أراد أن يعرف مكانة العقل في هذا الدين؛ فليقرأ القرآن الكريم.

ومن أراد أن يعرف كيف يزكي نفسه؛ فليقرأ القرآن الكريم.

ومن أراد أن يتعلم الإخلاص في أعماله؛ فليقرأ القرآن الكريم.

ومن.. ومن..

إنه كتاب الله تعالى الذي وصفه رسول الله ﷺ فقال:

(كتاب الله: فيه نبأ ما كان قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل.

(١) اقرأ - إن رغبت وعلى سبيل المثال - قصة غزوة بدر في سورة الأنفال، وقصة غزوة أحد في سورة آل عمران، وقصة غزوة الخندق في سورة الأحزاب، وسورة التوبة، وسورة محمد، وسورة الفتح، وسورة وسورة... فسيرته ﷺ يسجلها القرآن حتى في أدق تفاصيلها في بعض الأحيان.



من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله.

وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم.

هو الذي لا تزيع به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه..

هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾ [الجن: ١، ٢].

من قال به صدق، ومن عمل به أُجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هُديَ إلى صراط مستقيم) رواه الترمذي والدارمي .





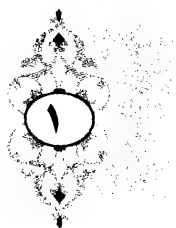
الفصل الثاني

رسائل قرآنية

«إن من كان قبلكم رأوا القرآن رسائل من ربهم،
فكانوا يتدبرونها بالليل وينفذونها في النهار»

الحسن البصري

تصنيف الناس



قال الله تعالى:

﴿الْم • ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ •
الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ •
وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ
يُوقِنُونَ • أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ
الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١ - ٥].

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ
لَا يُؤْمِنُونَ • خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ
غِشَاوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٦ - ٧].

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ
بِمُؤْمِنِينَ • يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخْدَعُونَ إِلَّا
أَنفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ • فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا
وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ • وَإِذَا قِيلَ لَهُم لَا
تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ • أَلَا إِنَّهُمْ



هُمُ الْمَفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ • وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ • وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ • اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ • أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رِحَتْ بِحَدِّثَتِهِمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿البقرة: ٨ - ١٦﴾.



في هذه الآيات الكريمة رسائل.

• الأولى: وفيها تصنيف الناس.

فقد صنفت هذه الآيات الكريمة الناس في مجتمع المدينة، بل وفي العالم كله إلى ثلاث فئات.

- الأولى: جماعة المؤمنين الذين هم أتباع الكتاب الذي لا ريب فيه والذي فيه هدى للمتقين، وهؤلاء هم الذين على هدى من ربهم وهم المفلحون.

- الثانية: جماعة الكافرين، والكفر عنوان لجماعات متعددة المذاهب. فمنهم: الكافر الذي لا يؤمن بإله، ومنهم



المشرك الذي جعل مع الله آلهة أخرى، ومنهم أهل الكتاب الذي حرفوا أديانهم وبدلوا وغيّروا، وقد جعلهم الله في عداد الكافرين فقال: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ [البينة: ١].

فجماعة الكافرين هي على النقيض من الجماعة الأولى - جماعة المؤمنين - فماذا بعد الحق إلا الضلال.

- الثالثة: جماعة المنافقين، وهذه الجماعة في ظاهرها تتجمل بصفات جماعة المؤمنين وفي باطنها هي من الثانية جماعة الكافرين.

ولما كان لهذه الجماعة من خطر على جماعة المؤمنين أطالت الآيات في وصفها حتى اتضحت معالمها فلا يغتربها المؤمنون.

فهم يقولون آمنا، وما هم بؤمنين، وإذا لقوا المؤمنين قالوا آمنا، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون.

فهؤلاء في حقيقتهم كافرون، وإن كانوا من أجل ظاهرهم يعاملون معاملة المسلمين.



إن غاية الرسالة الأولى هي هذا المسح الشامل لأصناف الناس، حتى تعرف الدولة المسلمة كيف تدير شؤونها، وحتى يعرف الأفراد المسلمون الواقع الذي يعيشون فيه فيحسنون التعامل وأخذ الحيطة والحذر.

• الرسالة الثانية: وفيها بيان الأساس الذي قام عليه هذا التصنيف.

واضح مما سبق أن هذا التصنيف للناس لم يقيم على أساس جغرافي، بحيث يُتَّبَعُ النَّاسَ وفقاً لأماكن سكنهم وإقامتهم، كما لم يقيم على العرق واللون، وإنما قام على الدين والمعتقد، فهوية المسلم عقيدته في أي مكان كان، وأياً كان لونه وعرقه، وعلى هذا فالمؤمنون إخوة أينما كانوا وأياً كانوا، بعضهم لبعض نَصَحَةٌ..

وعلى هذا نشأت الجماعة المسلمة، وعلى هذا ينبغي أن تستمر.

• الرسالة الثالثة: وهي موجهة إلى الناس جميعاً.

فإن هذه الآيات الكريمة بعد أن بيَّنت أصناف الناس، دعت الناس جميعاً إلى أن يكونوا من الفئة الأولى، ونادتهم كافة أن يفيئوا إلى عبادة الله الواحد فقال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١].

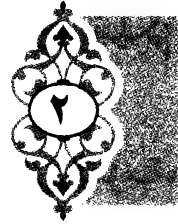
- الرسالة الرابعة: وهي موجهة إلى الفئة الأولى المؤمنة، خلاصتها أن حمل اسم الإيمان أو الإسلام له متطلبات لا بد من العمل على تحقيقها، وهي نوعان:
 - عمل قلبي: يتمثل بالإيمان بالغيب والإيمان بالقرآن والكتب المنزلة الأخرى السابقة، والإيمان باليوم الآخر..
 - وعمل جسمي: ومنه إقامة الصلاة، والإنفاق من المال..

فمن توفرت عنده أركان الإيمان، وأركان الإسلام فأولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون.

وهذا ما أكدت عليه الآيات المتكررة من قوله تعالى:
 ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [البقرة: ٢٧٧].



الإنفاق في سبيل الله



قال الله تعالى:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يَتَّبِعُونَ مِمَّا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٦١، ٢٦٢].

سبحان الله، ما أعظم هذا العطاء، الذي لا يصدر مثله إلا عن الله ﷻ، فهو وحده الذي خزائنه لا تنفذ.

حبة واحدة تنتج سبعمئة حبة، هذا هو الحد الأدنى، ثم يضاعف الله ذلك لمن يشاء.

إن من يسمع هذه الآية ثم يتوانى عن الإنفاق في سبيل الله تعالى وهو قادر عليه إنه مقصر في حق نفسه، التي هي بحاجة إلى مثل هذا الأجر العظيم والعطاء السخي.



بل إن هذه الآية الكريمة لتجعل القادر على الإنفاق بحاجة إلى الفقير - المنفق عليه - لا لِيَسُدَّ حاجته، بل ليحصل هذا الأجر العظيم.

إن كلاً من الطرفين بحاجة إلى الآخر، ولكن حاجة المنفق أكبر.

وتشترط هذه الآية الكريمة أن يكون الإنفاق في سبيل الله تعالى خالصاً له ابتغاء مرضاته.

وتوضح الآية الثانية ذلك بقولها: ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يَتَّبِعُونَ مِمَّا أَنْفَقُوا مِمَّا وَلَا أَذَى﴾ فالمن والأذى يبطلان كونها في سبيل الله.

«فالمنُّ عنصر كره، وشعور خسيس، فالنفس البشرية لا تمن بما أعطت إلا رغبة في الاستعلاء الكاذب أو رغبة في لفت أنظار الناس، فالتوجه بالعطاء إذن للناس لا لله. والمن - بعد ذلك - يجعل الصدقة أذى للواهب وللأخذ سواء.

أذى للواهب بما يثير في نفسه من كبر وخيلاء. وأذى للأخذ بما يثير في نفسه من انكسار وانهزام.



إن الإسلام لم يرد بالإنفاق مجرد سدّ الخلة، وملء البطن، وتلافي الحاجة. كلا!

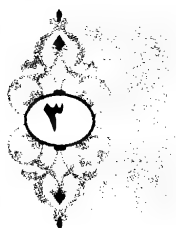
إنما أرادته تهذيباً وتزكية وتطهراً لنفس المعطي، واستجاشة لمشاعره الإنسانية وارتباطه بأخيه الفقير في الله وفي الإنسانية، وتذكيراً بنعمة الله عليه..

كما أرادته ترضيةً لنفس الآخذ، وتوثيقاً لصلته بأخيه في الله وفي الإنسانية، وسداً لخلة الجماعة كلها لتقوم على أساس من التكافل والتعاون»^(١).

وبعد: فحري بكل قارئ لهذه الآيات أن يستقر معناها في عقله، لتتحول إلى عمل، كلّ ما أمكن ذلك، ولا يمر عليها لمجرد كسب أجر التلاوة، ويكتفي بذلك، ويغفل عن الأجر العظيم الذي جاءت لتبشر به فاعله.



آخر آية نزلت



قال الله تعالى:

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١].

ترشد الآية الكريمة إلى تذكر اليوم الذي يرجع الناس فيه إلى الله تعالى، وهو يوم القيامة، وتطلب من المخاطبين تقديم العمل الصالح لذلك اليوم، حيث يحاسب الناس على أعمالهم صغيرها وكبيرها بالعدل إذ لا ظلم في ذلك اليوم.

وهذا المعنى الذي تذكره الآية الكريمة تكرر في القرآن الكريم كثيراً، ففضيلة الإيمان باليوم الآخر هي إحدى أركان الإيمان، وكثيراً ما يأتي ذكر الإيمان بهذا اليوم مقترناً بالإيمان بالله تعالى.

والإيمان باليوم الآخر هو الضابط لسلوك المسلم في حياته الدنيا، حيث يسعى لتقديم الأعمال الصالحة والبعد



عن كل سبيء... وما ذلك إلا لأن الإيمان قد استقر في نفسه أنه محاسب على ما قَدَّم، وأنه مجزي به.

والآية الكريمة التي نحن بصدد الحديث عنها تضيف إلى ذلك معنى آخر باعتبارها آخر آية نزلت من القرآن الكريم.

فقد نقل الإمام ابن كثير في تفسيره عن ابن عباس وغيره: أن آخر ما نزل من القرآن الكريم كله ﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ وفي بعض الروايات أن نزولها كان قبل تسع ليالٍ من وفاة النبي ﷺ.

إن آية كريمة يختم الله تعالى بها نزول كتابه لا بد أن تكون لها دلالة خاصة، فهي بمثابة الوصية الأخيرة، ودائماً تكون للوصية الأخيرة دلالتها، إنها التأكيد على أن اليوم الآخر ينبغي أن لا يغيب عن ذهن المسلم في لحظة من حياته.

والرسالة التي تحملها: أنه ينبغي على كل مسلم أن يجعل من هذه الآية، اللازمة التي يكررها كل يوم في حياته، يذكّر نفسه بها، حتى تظل على الطريق المستقيم الذي أمر الله به عباده.

ورسالة أخرى يوحى بها مكان هذه الآية في سياق الآيات التي قبلها والتي بعدها.

فقد سبقتها آيات تحريم الربا التي بدأت بقوله تعالى:
﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي
يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

وجاءت بعدها آية الدين وهي أطول آية في القرآن
الكريم.

وإذن فما قبلها وما بعدها ذو موضوع واحد، هو
التعامل المادي بين الناس المتمثل في التجارة وما ينضوي
تحتها من فروع.

وعلى هذا فالآية الكريمة تعني في جملة ما تعنيه
التحذير من أكل أموال الناس بالباطل كأخذ الربا وما
أشبهه، وتعني ضبط العلاقات المادية بين الناس بالكتابة
حتى لا يضيع حق من الحقوق، لأنها محل للحساب يوم
القيامة.

فعن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: (أتدرون من
المفلس؟)

قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع.

فقال: (إن المفلس من أمتي، يأتي يوم القيامة بصلاة
وصيام، وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال



هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا. فَيُعْطَى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فُتيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه، أُخِذَ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار) رواه مسلم.

فالرسالة الثانية التي تحملها الآية الكريمة: هي الحرص على أداء الحقوق إلى أصحابها، وهذا عمل مستمر بين الناس، ووضع الضوابط له أمر مفيد. يقلل الاختلاف والنزاعات التي تنشأ بين الناس.



محبة الله تعالى



قال الله تعالى:

﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿ [آل عمران: ٣١، ٣٢].

كثير أولئك الذين يدعون محبة الله، ويظنون أنها نوع من الهيام الغامض وأنها كلمات تقال باللسان، أو تُنشد بالألحان وقد تصاحبها الموسيقى.. ثم تكون الأعمال بغير عقال ولا ضابط.

وفي الآيتين الكريمتين رسالة تضبط هذا المعنى وتبين مستلزماته.

«إن حب الله ليس دعوى باللسان، ولا هياماً بالوجدان، إلا أن يصاحبه الاتباع لرسول الله ﷺ، والسير على هداة، وتحقيق منهجه في الحياة..»

وإن الإيمان ليس كلمات تقال، ولا مشاعر تجيش ولا شعائر تقام، ولكنه طاعة الله ورسوله، وعمل بمنهج الله الذي يحمله الرسول».

قال الإمام ابن كثير في تفسير الآية الأولى:

«هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله، وليس هو على الطريقة المحمدية فإنه كاذب في نفس الأمر، حتى يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأفعاله.

كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردّ) ولهذا قال: (إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) أي يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إياه، وهو محبته إياكم وهو أعظم من الأول.

قال الحسن البصري وغيره من السلف: زعم قوم أنهم يحبون الله فابتلاهم بهذه الآية.

وقال في تفسير الآية الثانية:

﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ۖ فَإِنْ تَوَلَّوْا ۖ أَيْ تَخَالَفُوا عَنْ أَمْرِهِ ۖ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ۖ ﴾ فدلّ على أن مخالفته



في الطريقة كفر، والله لا يحب من اتصف بذلك، وإن ادعى وزعم في نفسه أنه محب لله^(١).

والرسالة التي تسجلها الآية الكريمة: هي كما قال ابن كثير: إن دعوى محبة الله تعالى تقتضي اتباع الرسول ﷺ. واتباع الرسول ﷺ هو الالتزام بكل ما جاء به من: فرائض وواجبات ونوافل، وأخلاق وسلوك.

إنه اتباع يضيفي على صاحبه صفات عباد الرحمن التي نصّت عليها الآيات الكريمة، وآيات وصية لقمان لابنه.

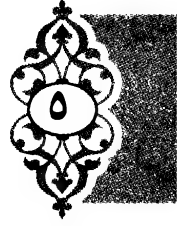
وباختصار فقد كان خلق رسول الله ﷺ القرآن، كما قالت السيدة عائشة ومن ادعى محبة الله تعالى فينبغي أن يسعى لتحقيق هذا الهدف.

وأما من ادعى محبة الله تعالى وسلوكه وأعماله ومعاملاته تكذب ذلك فهو الأمر المخيف.



(١) الظلال وابن كثير.

حُسْنُ الخاتمة



قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

تطلب الآية الكريمة من كل مسلم أمرين:

- تقوى الله حق تقاته.

- والموت على الإسلام.

(١) والتقوى في اللغة: بمعنى الاتقاء، وهو اتخاذ الوقاية.

وهي: الاحتراز بطاعة الله عن عقوبته، وصيانة النفس عما تستحق به العقوبة من فعل أو ترك.

والتقوى في الطاعة: يُراد بها الإخلاص.

وفي المعصية: يراد بها الترك والحذر.

هذا ما جاء في «تعريفات» الجرجاني.



وجاء في «الرسالة القشيرية»: التقوى جماع الخبرات، وحقيقة الاتقاء: التحرز بطاعة الله من عقوبته.

قال: وأصل التقوى: اتقاء الشرك، ثم بعد ذلك: اتقاء المعاصي والسيئات، ثم بعد ذلك، اتقاء الشبهات، ثم بعد ذلك: ترك الفضلات.

وخلاصة هذه الأقوال: أنها فعل الطاعات واجتناب المعاصي.

ولذلك كانت «التقوى» هي مقياس الكرامة عند الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْتَقِمُ﴾ [الحجرات: ١٣].

وقوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ قال ابن مسعود رضي الله عنه: أن يطاع فلا يعصى، وأن يذكر فلا ينسى، وأن يشكر فلا يكفر.

ومعنى ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ أي كما ينبغي أن يتقى.. وهذا مقام عالٍ.

جاء في الظلال: «اتقوا الله - كما يحق له أن يتقى - وهي هكذا بدون تحديد، تدع القلب مجتهداً في بلوغها كما يتصورها وكما يطيقها».



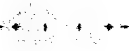
٢) وأما قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾. فقال الإمام ابن كثير: «أي حافظوا على الإسلام في حال صحتكم وسلامتكم لتموتوا عليه، فإن الكريم - سبحانه - قد أجرى عادته بكرمه: أنه من عاش على شيء مات عليه، ومن مات على شيء، بعث عليه».

وجاء في «الظلال»: «والموت غيب لا يدري الإنسان متى يدركه، فمن أراد ألا يموت إلا مسلماً، فسيبيله منذ اللحظة أن يكون مسلماً، وأن يكون في كل لحظة مسلماً».

أجل، بما أن أجل الإنسان مغيب عنه، ولا يدري متى يكون، فعليه أن يكون مسلماً في كل وقت حتى إذا جاء أجله كان كما أراده الله أن يكون.

والذي يبدو - والله أعلم - أن الفقرتين في الآية الكريمة تؤكدان على معنى واحد وتؤديان إلى غاية واحدة.

فالالتزام بالفقرة الأولى ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ تؤدي بإذن الله تعالى إلى تحقيق الثانية، فمن اتقى الله في حياته، كما ينبغي له - سبحانه - أن يتقى، وداوم على ذلك، فإنه عندما يأتيه أجله فسيجده مسلماً، وتكون نهايته كما طلبت منه الآية الكريمة.



والخلاصة: أن المطلوب أمران:

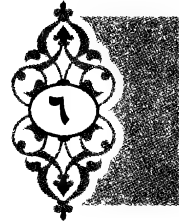
- استدامة التقوى في مستواها العالي.

- والموت على الإسلام.

إنها كلمات قليلة ولكنها تستغرق العمل في العمر كله
من أجل تنفيذها، والموفق من وفَّق الله ويسر له ذلك.



معالم التقوى



قال الله تعالى:

﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا
السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ • الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي
السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَبِيرِ وَالصَّغِيرِ وَالْعَافِينَ عَنِ
النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ • وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا
فَاجِسَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ
وَمَن يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا
وَهُمْ يَعْلَمُونَ • أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ
وَجَنَّةٌ تَجْرَىٰ مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ
الْعَامِلِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣ - ١٣٦].

﴿وَسَارِعُوا﴾ هكذا بدأت هذه الآيات بكلمة تقدُّرُ
«الزمن» والوقت، وتلفت النظر إلى ذلك.

والإسراع والمصارعة: إنما يكونان في إدراك شيء
يُخاف فواته.



وقد تكرر هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٢١].

وهكذا يبرز في هاتين الآيتين الكريمتين أمران:

- لفت النظر إلى قيمة الزمن في قوله تعالى ﴿وَسَارِعُوا﴾ وقوله ﴿سَابِقُوا﴾.

- وتحديد الغاية المراد السعي والسبق لإدراكها، وهي: المغفرة والجنة.

والذي يبدو لي - والله أعلم - أن المقصود من قوله ﴿وَسَارِعُوا﴾ هو بذل الجهد والسعي الجاد لإدراك المقصود، وعدم التباطؤ في المبادرة إلى ذلك..

ودائماً تكون المسارعة وبذل الجهد بحسب قيمة الهدف المقصود.

وإذا كان المقصود: المغفرة من الله تعالى والجنة، فإن كل جهد وكل مسارعة سيكونان دون المستوى المطلوب.

ومما يساعد على «المسارعة» اغتنام الفرص التي أرشد الرسول ﷺ إليها بقوله: (اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك).



وقد ختمت الآية الأولى بقوله تعالى: ﴿أَعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ وهذا يحدد هوية المسارعين والمسابقين، فإنما يسعى إلى ذلك «المتقون».

وقد سبق الحديث عن «التقوى» في شرح آية سابقة، ولكن الآيات هنا تحدد لنا بعضاً من معالمها بذكر أمثلة من الأعمال التي تؤدي إلى تحقيقها.

فالمتقون هم:

١ - ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾.

إنهم ينفقون أموالهم في سبيل الله في الشدة والرخاء، والمنشط والمكره، والصحة والمرض، وفي جميع الأحوال، فقد تحررت نفوسهم من الشح والحرص.

٢ - ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾.

قال ابن كثير: «أي إذا ثار بهم الغيظ كظموه بمعنى كتموه، فلم يعملوه، وعفوا مع ذلك عمن أساء إليهم».

وكظم الغيظ هو المرحلة الأولى، وهي وحدها لا تكفي، فقد يكظم الإنسان غيظه ليحقد.. ولذلك جاء في الآية بعد ذلك ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ وبهذا يكتمل هذا الخلق الكريم.

٣ - ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

إن الذين يجودون بالمال، والذين يجودون بالسماحة والعفو هم من جملة المحسنين الذين يحبهم الله تعالى. والإحسان مقام رفيع تنضوي تحته مجمل الفضائل، والآية بهذا السياق كأنها تضيف إلى صفات المتقين التي سبق ذكرها: صفة الإحسان.

٤ - ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

ما زال الحديث عن المتقين..

ومن واقعية هذا الدين وسماحته أنه راعى ضعف الإنسان واحتمال وقوعه في المعصية ووقوع الذنب منه ومع ذلك فإنه لا يخرج من دائرة «المتقين» طالما أنه إذا وقع منه ذلك رجع إلى ربه تعالى فاستغفره وتاب إليه، ولم يصر على المعصية وهو يعلم أنها معصية.. إنه يعود إلى ربه الذي لا يغفر الذنوب غيره ليعلن التوبة وتصحيح المسار.

٥ - ﴿أُولَئِكَ جَزَاءُهم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهم وَجَنَّتْ تَجَارِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾.



إن الذين توفرت فيهم الصفات السابقة هم المتقون،
﴿أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ ۖ﴾.

هكذا: مغفرة وجنات، كما جاء في أول الآيات
﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ ۖ﴾ أي أنهم
أعطوا ما سعوا إليه، ونِعْمَ أجر العاملين.

وبعد:

فإن هذه الآيات الكريمة تحدد معالم «التقوى» التي
ورد ذكرها في القرآن الكريم كثيراً.

فهي تقوم على أمرين: تحديد سلوك الإنسان تجاه الآخرين
الذين يتعامل معهم، وتحديد سلوكه مع خالقه تعالى.

- أما سلوكه مع الآخرين فيتمثل - كما جاء في الآية
الكريمة - بأمرين:

الأول: العطاء والبذل للآخرين في السراء والضراء
بعيداً عن المنِّ والأذى وهذا العطاء قد يكون مالياً، وقد
يكون وقتاً يبذله في مساعدة الآخرين، وقد يكون شفاعة..
إنه الإحسان..

والثاني: تحمُّل أذى الآخرين والصبر على ذلك،
والعفو عنهم..



واجتماع هذين الأمرين في معاملة الآخرين يمثل الصورة المشرقة للوضيئة للتعامل الخير.

- وأما سلوكه مع خالقه تعالى: فإنه يقوم على الطاعة والحب، وعندما يغفل أو يسهو فتصدر منه المعصية فإنه يسارع إلى ربه تعالى يسأله المغفرة والعفو، وهو متيقن أنه لا يغفر الذنوب غيره وَسِعَ اللَّهُ رَحْمَةً.

والخلاصة:

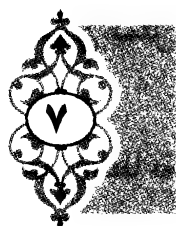
إن الرسالة التي تحملها هذه الآيات عظيمة تصاحب الإنسان طوال حياته:

- فهو في جد ومسارعة إلى طلب رضوان الله ومغفرته وجنته.

- ومن أجل ذلك فهو يحسن إلى الناس ويتحمل أذاهم ويعفو ويسامح.

- ويطيع ربه تعالى، وإذا وقع منه الذنب سارع إلى الاستغفار والتوبة.





مهمته ﷺ في التعليم والتركية

قال الله تعالى:

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ
يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ
وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

في هذه الآية الكريمة بيان فضل الله ونعمته الكبرى
التي امتن ومنَّ بها على المؤمنين إذ بعث فيهم سيدنا
محمداً ﷺ رسولا يهديهم إلى عبادة الله تعالى.

ومن آخر: هو أن هذا الرسول منهم ومن أنفسهم عربياً
بحيث يمكن مخاطبته ومراجعته والفهم عنه.

وبعثة الرسول ﷺ هي رحمة للعالمين، وإنما خصَّ
المؤمنين بالذكر لأنهم المنتفعون ببعثته.

وقد بيّنت الآية الكريمة بعض المهمات التي أوكلت
للسول ليقوم بها ومنها:

١ - تلاوة آيات الله عليهم بدءاً لدعوتهم إلى دين الله تعالى.

٢ - فإذا آمنوا بهذا الدين بدأ بتزكيتهم وتطهير نفوسهم من أدران الجاهلية والأخلاق الفاسدة التي كانوا متلبسين بها في حال شركهم.

٣ - ويعلمهم القرآن والسُّنة، وينقلهم بذلك من ظلام الجهل إلى نور العلم، وقد كانوا قبل ذلك في ضلال مبين.

وإذا كان الله ﷻ يمنُّ على المؤمنين ببعثه الرسول ﷺ لهم وفيهم فذلك بيان لمكانته عند الله تعالى وكرامته، فهو خاتم النبيين وإمامهم وأفضلهم.

والرسالة التي تحملها هذه الآية الكريمة أنه على كل مسلم أن يعرف من سيرة نبيه ﷺ وسنته ما يخرج به أن يكون في عداد الجاهلين، لأن معرفة سيرته ﷺ تجعلنا أكثر قدرة على معرفة مكانته.

يضاف إلى ذلك:

١ - حمد الله تعالى وشكره على أن مَنَّ علينا بنبينا محمد ﷺ.



٢ - العمل على الالتزام بما جاء به ﷺ وذكرته الآية
الكريمة، فتتعلم الكتاب والحكمة - وهي السنة النبوية
- ونعمل على تزكية أنفسنا وفقاً لما جاء به ﷺ.



سبيل النجاة من النار



قال الله تعالى:

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أَجُورَكُمْ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ
فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ :

«يخبر الله تعالى إخباراً عاماً، يعم جميع الخليقة بأن
كل نفس ذائقة الموت.. فهو وحده تعالى الذي لا يموت،
والجن والإنس يموتون، وكذلك الملائكة وحملة العرش،
وينفرد الواحد الأحد القهار بالديمومة والبقاء، فيكون آخر
كما كان أولاً.

وهذه الآية فيها تعزية لجميع الناس، فإنه لا يبقى أحد
على وجه الأرض حتى يموت.. فإذا انتهت البرية أقام الله
القيامة وجازى الخلائق بأعمالها جليلها وحقيرها، قليلها



وكثيرها، كبيرها وصغيرها، فلا يظلم أحداً مثقال ذرة ولهذا قال ﴿وَلَئِنَّمَا تُوفُونَ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾.

وجاء في الظلال:

«إنه لا بد من استقرار هذه الحقيقة في النفس: حقيقة أن الحياة في هذه الأرض موقوتة، محدودة بأجل، ثم تأتي نهايتها حتماً..

يموت الصالحون ويموت الطالحون.

يموت المجاهدون ويموت القاعدون.

يموت المستعلون بالعقيدة ويموت المستذلون للعبيد.

يموت الشجعان الذين يأبون الضيم، ويموت الجبناء الحريصون على الحياة بأي ثمن.

يموت ذوو الاهتمامات الكبيرة والأهداف العالية، ويموت التافهون الذين يعيشون فقط للمتاع الرخيص.

الكل يموت... ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ .. كل نفس تذوق هذه الجرعة، وتفارق هذه الحياة.. لا فارق بين نفس ونفس في تذوق هذه الكأس الدائرة على الجميع..

إنما الفارق في المصير الأخير ﴿وَلَئِنَّمَا تُوفُونَ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾.

إن حقيقة الموت لا ينكرها أحد.. فهي حقيقة متيقنة لدى المؤمن والكافر ولكن كثيراً من الناس - في زحمة الحياة والانشغال بها - يغفلون عنها أو ينسونها.. ثم يتذكرونها عندما تقع قريباً منهم.. ثم تلفهم زحمة الانشغال بالدنيا.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمَّا تُوَفَّوْنَ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أن الأعمال التي كانت في الدنيا، سيجري عليها الحساب يوم القيامة.. ونتيجة لهذا الحساب قد يزحزح الإنسان عن النار، وقد لا تسعفه أعماله فيسقط ليستقر فيها والعياذ بالله.

وتبرز في الآية الكريمة كلمة ﴿زُحْزِحَ﴾ لتنقل الفكر إلى ذلك المشهد الذي سيكون يوم القيامة.

جاء في الظلال، رحم الله مؤلفه:

«ولفظ ﴿زُحْزِحَ﴾ بذاته يصور معناه بجرسه، ويرسم هيئته، ويلقي ظله، وكأنما للنار جاذبية تشد إليها من يقترب منها، ويدخل في مجالها، فهو في حاجة إلى من يزحزحه قليلاً قليلاً ليخلصه من جاذبيتها المنهومة، فمن أمكن أن يزحزح عن مجالها، ويستنفذ من جاذبيتها، ويدخل الجنة.. فقد فاز.



صورة قوية، بل مشهد حي، فيه حركة شد وجذب، وهو كذلك في حقيقته وفي طبيعته، فللنار جاذبية، أليست للمعصية جاذبية؟ أليست النفس في حاجة إلى من يزحزحها زحزحة عن جاذبية المعصية؟ بلى، وهذه هي زحزحتها عن النار».

﴿وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَعُ الْغُرُورِ﴾

وبهذه الحقيقة يأتي ختام هذه الآية الكريمة.

«إنها متاع، ولكنه ليس متاع الحقيقة، ولا متاع الصحو واليقظة.. إنها متاع الغرور، المتاع الذي يخدع الإنسان فيحسبه متاعاً، أو المتاع الذي ينشئ الغرور والخداع، فأما المتاع الحق، المتاع الذي يستحق الجهد في تحصيله.. فهو ذاك.. هو الفوز بالجنة بعد الزحزحة عن النار».

وبعد: فإن الرسالة التي تسجلها هذه الآية الكريمة هي تذكر الحساب ويوم القيامة والموت الذي هو المدخل إلى ذلك اليوم.

وقد جاءت الأحاديث الكثيرة التي تدعو إلى تذكر الموت وتذكر الحياة الآخرة لما في ذلك من خير للإنسان، حيث يكبح هذا التذكر لهائسه وراء الدنيا والانغماس في شهواتها وملذاتها.



ومن هذه الأحاديث:

- ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: (أكثرُوا ذكر هاذم اللذات) يعني: الموت. رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه.

- وما رواه ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: (.. زوروا القبور فإنها تذكركم الموت) أخرجه مسلم.

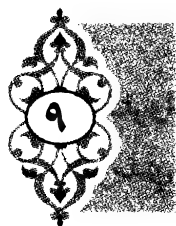
وفي رواية عنه عند ابن ماجه مرفوعاً: (كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها، فإنها تزهد في الدنيا وتذكر الآخرة).

والأمر المطلوب العمل به: هو أن يزحزح الإنسان عن النار، فإذا تمَّ له ذلك فقد حصل الفوز.

والزحزحة عن النار والفوز بالجنة إنما يكون بفضل الله، ولكن الله سبحانه وجهنا إلى العمل، فالأعمال الصالحة لها القسط الأكبر من زحزحة المرء عن النار.



إقامة العدل



قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلّٰهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَالِدِينَ وَٱلْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَاقِرًا فَإِلّٰهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا ٱلْهَوَىَّ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلَوْا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥].

هذه الآية الكريمة تبين معالم «العدل» المطلوب إقامته في المجتمع الإسلامي.

إنه العدل «المطلق» الذي لا تتدخل به الأهواء ولا تحرفه العواطف، ولا تؤثر فيه العلاقات الاجتماعية أياً كان شأنها..

وكلمة «قَوَّامِينَ» التي هي صيغة مبالغة تؤكد هذا المعنى.

فالمطلوب من القاضي أن يقضي بهذا العدل بعيداً عن النظر إلى القرابة أو الفقر والغنى.

والمطلوب من الشاهد أن يشهد بهذا العدل.

والمطلوب من كل إنسان أن يكون قوله مقررّاً للعدل.

قال ابن كثير:

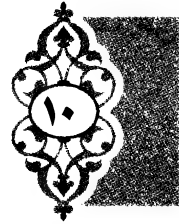
«يأمر الله تعالى عباده المؤمنين أن يكونوا قوامين بالقسط - أي بالعدل - فلا يعدلوا عنه يميناً ولا شمالاً، ولا تأخذهم في الله لومة لائم، ولا يصرفهم عنه صارف، وأن يكونوا متعاونين متساعدين متناصرين فيه».

وجاء في الظلال:

«إنه درس في إقامة العدل بين الناس، على النحو الفريد الذي لم يقم إلا على هذه الجماعة، العدل الذي تتعامل فيه مع الله مباشرة، متخلصة من كل عاطفة أو هوى أو مصلحة، متجردة من كل اعتبار آخر غير تقوى الله ومرضاته».

إنها رسالة لكل مسلم في أن يكون عاملاً على إقامة العدل في قوله وفي سلوكه منضبطاً مع القواعد التي ذكرتها هذه الآية الكريمة.

كمال الدين



قال الله تعالى:

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي
وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

كان ذلك اليوم هو يوم عرفة من حجة الوداع، حيث
كان النبي ﷺ يلقي خطبته المشهورة، وحينها نزل قوله
تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي
وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾.

كان هذا النزول إيذاناً بانتهاء مهمة الرسول ﷺ، وقرب
موعد وفاته، وهذا ما أدركه بعض الصحابة رضي الله عنهم.

ولم تطل حياته ﷺ بعد عودته من حجته، فقد انتقل إلى
الرفيق الأعلى في شهر ربيع الأول، أي بعد ثلاثة أشهر.

كانت حكمة الله بالغة، وفضله عميماً في نزول هذه
الآية الكريمة في هذه المناسبة التي جمعت عشرات

الآلاف من الصحابة حتى يشهدوا نزولها، ويسمعوا تلاوتها لأول مرة من فمه الكريم ﷺ.

فلو توفي الرسول ﷺ ولم تنزل هذه الآية، لظن بعضهم أن الدين لم يكتمل. وأن وفاته ﷺ حالت دون ذلك، ولكن الله تعالى رؤوف بعباده المؤمنين، فكان نزولها في أكبر تجمع إسلامي يومئذ؛ ليكون البلاغ عاماً وليطمئن المؤمنون على تمام نعمة الله عليهم.

والآية الكريمة تقرر ثلاثة أمور مرتبط بعضها ببعض:

١ - إكمال الله تعالى هذا الدين عقيدة وشريعة.

٢ - إتمام نعمته تعالى على عبادة بهذا الإكمال.

٣ - وأنه تعالى ارتضى لعباده الإسلام ديناً.

قال الإمام ابن كثير بعد أن ذكر الآية الكريمة:

«هذه أكبر نعم الله تعالى على هذه الأمة، حيث أكمل تعالى لهم دينهم، فلا يحتاجون إلى دين غيره، ولا إلى نبي غير نبيهم صلوات الله وسلامه عليه، ولهذا جعله الله تعالى خاتم الأنبياء، وبعثه إلى الإنس والجن، فلا حلال إلا ما أحله، ولا حرام إلا ما حرمه، ولا دين إلا ما شرعه، وكل شيء أخبر به فهو حق وصدق لا كذب فيه ولا خلف..».



وجاء في «الظلال» بعد ذكر الآية الكريمة:

«ويقف المؤمن أمام هذه الكلمات الهائلة، فلا يكاد ينتهي من استعراض ما تحمله في ثناياها من حقائق كبيرة، وتوجيهات عميقة، ومقتضيات وتكاليف.

ويقف المؤمن أولاً: أمام إعلان إكمال العقيدة، وإكمال الشريعة معاً، فهذا هو الدين، ولم يعد للمؤمن أن يتصور أن بهذا الدين - بمعناه هذا - نقصاً يستدعي الإكمال، ولا قصوراً يستدعي الإضافة، ولا محلية أو زمانية تستدعي التطوير أو التحرير.. وإلا فما هو بمؤمن، وما هو بمقر بصدق الله، وما هو بمرتضى ما ارتضاه الله للمؤمنين.

إن شريعة ذلك الزمان الذي نزل فيه القرآن، هي شريعة كل زمان، لأنها - بشهادة الله - شريعة الدين الذي جاء «للإنسان» في كل زمان وفي كل مكان.

والأحكام التفصيلية جاءت لتبقى كما هي.

والمبادئ الكلية جاءت لتكون هي الإطار الذي تنمو في داخله الحياة البشرية إلى آخر الزمان، دون أن تخرج عليه، إلا أن تخرج في إطار الإيمان.



والله الذي خلق «الإنسان» ويعلم من خلق، هو الذي رضي له هذا الدين، المحتوي على هذه الشريعة، فلا يقول: إن شريعة الأمس ليست شريعة اليوم، إلا رجل يزعم لنفسه أنه أعلم من الله بحاجات الإنسان وبأطوار الإنسان. ويقف المؤمن ثانياً: أمام إتمام نعمة الله على المؤمنين، بإكمال هذا الدين، وهي النعمة التامة الضخمة الهائلة.

النعمة التي تمثل مولد «الإنسان» في الحقيقة، كما تمثل نشأته واكتماله.

«فالإنسان» لا وجود له قبل أن يعرف إلهه، كما يعرفه هذا الدين له، وقبل أن يعرف نفسه ودوره في هذا الوجود وكرامته على ربه، كما يعرف ذلك كله من دينه الذي رضي له ربه.

و«الإنسان» لا وجود له قبل أن يتحرر من عبادة العبيد بعبادة الله وحده، وقبل أن ينال المساواة الحقيقية بأن تكون شريعته من صنع الله وبسلطانه، لا من صنع أحد ولا سلطانه.

إن معرفة «الإنسان» بهذه الحقائق الكبرى، كما صورها هذا الدين، هي بدء مولد «الإنسان».



ولا يدرك حقيقة نعمة الله في هذا الدين، ولا يقدرها قدرها من لم يعرف حقيقة الجاهلية، ومن لم يذق ويلاتها، والجاهلية في كل زمان وفي كل مكان هي منهج الحياة الذي لم يشرعه الله تعالى.

الذي يعرف ويعاني ويلات الضلال والعمى، وويلات الحيرة والتمزق، وويلات الضياع والخواء، في معتقدات الجاهلية وتصوراتها في كل زمان وفي كل مكان.. هو الذي يعرف ويتذوق نعمة الإيمان.

ويقف المؤمن ثالثاً: أمام ارتضاء الله الإسلام ديناً للذين آمنوا، يقف أمام رعاية الله سبحانه وعنايته بهذه الأمة، حتى ليختار دينها ويرتضيه.

إن ارتضاء الله الإسلام ديناً لهذه الأمة يقتضي منها ابتداءً أن تدرك قيمة هذا الاختيار، ثم تحرص على الاستقامة على هذا الدين جهد ما في الطاقة من وسع واقتدار.

وإن الذين عرفوا هذا الدين ثم تركوه أو رفضوه، واتخذوا لأنفسهم مناهج في الحياة غير المنهج الذي ارتضاءه الله لهم لن يتركهم الله ولن يمهلهم أبداً، حتى يذوقوا وبال أمرهم.



وبعد:

إن من نعمة الله على الإنسان أن يكون في عداد المؤمنين المخاطبين بهذه الآية الكريمة، العاملين على التزام وتنفيذ ما تقتضيه.

وطوبى لمؤمن شمله الخطاب الإلهي بـ ﴿ أَكَمَلْتُ لَكُمْ ﴾ و﴿ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ و﴿ وَرَضِيتُ لَكُمْ ﴾؛ فذلك هو التكريم الإلهي والعطاء الإلهي.

والمسلم الذي رضي لنفسه ما رضىه الله له هو الذي حَكَّم هذا الدين في حياته، وصبغها بصبغته: فأسلم عقله.

وأسلمت روحه.

وأسلمت مشاعره.

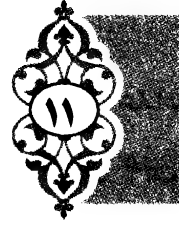
وأسلم جسمه.

وأسلمت كلماته وألفاظه.

وأسلم كل ما فيه.

وبهذا يكون قد رضي لنفسه ما رضىه الله له، واستحق أن يكون أحد المخاطبين بهذه الآية الكريم.

إِنَّا مَعَكُمْ مُقَاتِلُونَ



قال الله تعالى:

﴿قَالُوا يَمُوسَىٰ إِنَّآ لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ
أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤].

دعا موسى ﷺ قومه إلى دخول الأرض المقدسة،
فأجابه قومه بقولهم: إن فيها قوماً جبارين وإنّا لن ندخلها
حتى يخرجوا منها، فإن يخرجوا منها فإنّا داخلون.

وفي نهاية النقاش بين موسى وقومه كان قولهم: ﴿إِنَّا لَن
نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا﴾.

ولما نزلت هذه الآيات الكريمة وقرأها الصحابة
الكرام، فهموا الرسالة التي تحملها فأحسنوا الاستفادة
منها.



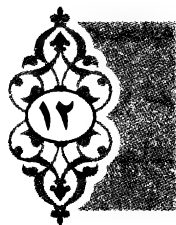
كان ذلك في غزوة بدر حين استشار النبي ﷺ أصحابه في القتال - بعد أن فاتته العبر - فتكلم أبو بكر فأحسن، ثم قال ﷺ: (أشيروا عليَّ أيها الناس) فقال سعد بن معاذ: كأنك تعرض بنا يا رسول الله. فوالذي بعثك بالحق، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصبر في الحرب صدق عند اللقاء لعل الله أن يريك معنا ما تقرُّ به عينك، فسر على بركة الله.

وتكلم المقداد بن الأسود فقال: يا رسول الله، لا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون، ولكننا نقول: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون.

فسرَّ رسول الله ﷺ بذلك.

وهكذا وعى المسلمون الدرس من قصة قوم موسى، وحولوه إلى الاتجاه الإيجابي وهكذا يمكن الاستفادة من الأخطاء التي وقع فيها الآخرون.

النهى عن المنكر



قال الله تعالى:

﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ
دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا
يَعْتَدُونَ * كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ
لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩].

في هذا النصّ الكريم رسالة تحذير للمسلمين من
الوقوع فيما وقع فيه بنو إسرائيل من المعصية والعدوان
وعدم التناهي عن المنكرات.

«إن تاريخ بني إسرائيل في الكفر والمعصية واللعنة
عريق، وإن أنبياءهم هم الذين تولوا لعنتهم وطردهم من
هداية الله، فسمع الله دعاءهم وكتب السخط واللعنة على
بني إسرائيل ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾».

إن المعاصي والعدوان هما بعض سبب اللعنة التي
حلت بهم.

يضاف إلى ذلك: أنهم كانوا لا يتناهون عن المنكر.
إن العصيان والعدوان قد يقعان في كل مجتمع من
الشريرين المفسدين المنحرفين، فالأرض لا تخلو من
الشر، والمجتمع لا يخلو من الشذوذ.

ولكن طبيعة المجتمع الصالح لا تسمح للشر والمنكر
أن يصبحا عرفاً مصطلحاً عليه، وأن يصبحا سهلاً يجترأ
عليه كل من يهمل به، وعندما يصبح فعل الشر أصعب من
فعل الخير في مجتمع من المجتمعات، ويصبح الجزاء
على الشر رادعاً وجماعياً.. وتوقع العقوبة الرادعة عليه،
عندئذٍ ينزوي الشر وتنحسر دوافعه.. وعندئذٍ لا تشيع
الفاحشة، ولا تصبح هي الطابع العام.

روى أبو داود عن عبد الله بن مسعود قال: قال
رسول الله ﷺ: (إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل،
كان الرجل يلقي الرجل، فيقول: يا هذا اتق الله ودع ما
تصنع فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد، فلا يمنعه أن
يكون أكيله وشربيه وقعيده، فلما فعلوا ذلك، ضرب الله
قلوب بعضهم ببعض) ثم قال: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ
بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ إلى
قوله: ﴿فَسَقُوتَ﴾.



ثم قال: (كلا والله لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يد الظالم، ولتأطرنه على الحق أطراً) رواه أبو داود.

فليس هو مجرد الأمر والنهي، ثم تنتهي المسألة، إنما هو الإصرار، والمقاطعة، والكف بالقوة عن الشر والفساد والمعصية والاعتداء.

روى مسلم عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله ﷺ: (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان)».

هذا بعض ما جاء في الظلال عند الآية الكريمة.

وجاء في صحيح الإمام البخاري: عن النعمان بن بشير عن النبي ﷺ قال: (مثل القائم على حدود الله والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً).



بهذه البلاغة النبوية العالية، يشرح الحديث وضع المجتمع، وقد ركب الجميع في سفينة، وفي السفينة طابقان: أعلى وأسفل، والماء الصالح للشرب موجود في الأعلى. فإذا أراد الذين في الأسفل الشرب اضطروا إلى الصعود إلى الأعلى والمرور على من فيه.

فقال أهل السفلى: دعونا نخرق جدار السفينة فنشرب من هذا الخرق ولا نؤذي من فوقنا بالمرور عليهم.

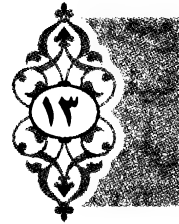
ومعلوم أن خرق السفينة يؤدي إلى غرقها وغرق من فيها ومن هم في الأعلى ومن هم في الأسفل.

فهل يسع أهل الأعلى أن يسكتوا على خرق الأسفلين في نصيبهم خرقاً، بحجة أن هذا الخرق في نصيبهم؟!

وكذلك السكوت على بعض العصاة والمعتدين وعدم الأخذ على أيديهم يؤدي إلى دمار المجتمع كله.



العلم الشامل



قال الله تعالى:

﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي
الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي
طُلُمْتٍ أَرْضٍ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾
[الأنعام: ٥٩].

إني وأنا العبد الصغير الضعيف، أول ما يشد انتباهي
مما ذكر في الآية الكريمة، تلك الورقة وهي تسقط من
شجرتها، فهذا المشهد مألوف لي ولأمثالي، ولكن الشجرة
الواحدة قد تسقط منها أوراق في أوقات متقاربة أو
متباعدة، ولكن الأمر ليس أمر شجرة في بستان، ولا شجر
بستان في قرية أو مدينة.. إنها أوراق كل شجرة على ظهر
هذه الأرض كلها.. إنه ﷻ يعلم كل ورقة منها في زمان
سقوطها ومكان استقرارها بعد سقوطها.. إنه علم الله
تعالى.



إن في الآية الكريمة: «صورة لعلم الله الشامل المحيط، الذي لا يند عنه شيء في الزمان ولا في المكان، في الأرض ولا في السماء، في البر ولا في البحر، في جوف الأرض ولا في طباق الجو، من حي وميت ويابس ورطب.. إن الخيال البشري لينطلق وراء النّص القصير يرتاد آفاق المعلوم والمجهول، وعالم الغيب وعالم الشهود وهو يتبع ظلال علم الله في أرجاء الكون الفسيح، ووراء حدود هذا الكون المشهود، وإن الوجدان ليرتعش وهو يستقبل الصور والمشاهد من كل فج وواد.

ويجول الفكر في مجاهل البر وفي غيابات البحر، المكشوفة كلها لعلم الله، ويتبع الأوراق الساقطة من أشجار الأرض لا يحصيها عد، وعين الله على كل ورقة تسقط، هنا وهنا وهناك، ويلحظ كل حبة مخبوءة في ظلمات الأرض لا تغيب عن عين الله، ويرقب كل رطب وكل يابس في هذا الكون العريض، لا يند منه شيء عن علم الله المحيط..

إنها جولة تدير الرؤوس، وتذهل العقول، جولة في آماذ من الزمان، وآفاق من المكان.. يعيا بتصور آماذها الخيال وهي تُرسم هكذا دقيقة كاملة شاملة في بضع كلمات.

ألا إنه الإعجاز.



وننظر إلى هذه الآية القصيرة من أي جانب فنرى هذا الإعجاز، الناطق بمصدر هذا القرآن.

ننظر إليها من ناحية موضوعها، فنجزم للوهلة الأولى: بأن هذا كلام لا يقوله بشر، فليس عليه طابع البشر.

إن الفكر البشري لا يرتاد هذه الآفاق.. فما اهتمام الفكر البشري بتقصي وإحصاء الورق الساقط من الشجر، في كل أنحاء الأرض؟ إن المسألة لا تخطر على بال الفكر البشري ابتداء.. إنما الورق الساقط شأن يحصيه الخالق، ويعبر عنه الخالق.

وما اهتمام الفكر البشري بكل حبة مخبوءة في ظلمات الأرض؟.. إنما هو شأن يحصيه الخالق ويعبر عنه الخالق. وما اهتمام الفكر البشري بهذا الإطلاق ﴿وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ﴾...

إن أقصى ما يتجه إليه تفكير البشر هو الانتفاع بالرطب واليابس مما بين أيديهم، فأما التحدث عنه كدليل للعلم الشامل، فهذا ليس من المعهود في اتجاه البشر وتعبيراتهم.. إنما كل رطب وكل يابس شأن يحصيه الخالق ويعبر عنه الخالق.

ولا يفكر البشر أن تكون كل ورقة ساقطة، وكل حبة مخبوءة، وكل رطب وكل يابس في كتاب مبين، وفي

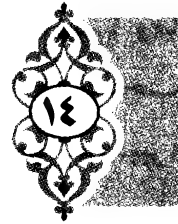
سجل محفوظ، فما شأنهم بهذا، وما فائدته لهم؟ وما احتفالهم بتسجيله؟ إنما الذي يحصيه ويسجله هو صاحب الملك، الذي لا يند عنه شيء في ملكه، الصغير كالكبير، والحقير كالجليل، والمخبوء كالظاهر، والمجهول كالمعلوم، والبعيد كالقريب.

إن هذا المشهد الشامل الواسع العميق الرائع كما أنه لا يتجه إليه الفكر البشري، وكذلك لا تلحظه العين البشرية، ولا تلم به النظرة البشرية.. إنه المشهد الذي يتكشف هكذا بجملته لعلم الله وحده، المشرف على كل شيء، المحيط بكل شيء، الحافظ لكل شيء، الذي تتعلق مشيئته وقدره بكل شيء...»^(١).

إنها رسالة - في هذه الآية الكريمة - تلفت النظر والفكر إلى عظمة علم الله تعالى الواحد الأحد في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله سُبْحَانَ اللَّهِ.

ورسالة أخرى تقول للإنسان: إذا كانت حركة الورقة الساقطة من شجرتها هي ضمن هذا الإحصاء الدقيق، أليست كل حركة للإنسان وكل سكون له ضمن هذا الإحصاء؟ أليست كل حركة لعينه وكل غمزة لها ضمن هذا الإحصاء؟ إنها تذكرة وأي تذكرة...!

(١) من الظلال باختصار.



ذلكم وصاكم به

قال الله تعالى:

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَنزِلْ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطُنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ • وَلَا تُقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ وَالْعِزَّانَ بِالْقِسْطِ لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ • وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١ - ١٥٣].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «من أراد أن ينظر إلى وصية رسول الله ﷺ التي عليها خاتمة فليقرأ



هؤلاء الآيات: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَنزِلْ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

تتضمن هذه الآيات الكريمة عدداً من الوصايا، تُعدُّ في مجملها قوام هذا الدين.

فالأية الأولى:

- تأمر بتوحيد الله وعدم الإشراك به.
 - وتأمر بالإحسان إلى الوالدين.
 - وعدم قتل الأولاد خوفاً من الفقر.
 - وعدم الاقتراب من الفواحش الظاهرة والباطنة.
 - وعدم قتل الأنفس إلا ما كان بحق كالقصاص من القاتل.
- وفي الآية الثانية:

- الوصية بعدم المساس بمال اليتيم.
- والوفاء بالكيل والميزان.
- والعدل في القول والشهادة والحكم، ولو كان ذلك على ذوي القربى.
- والوفاء بالعهد.



وفي الآية الثالثة:

- الوصية بلزوم الصراط المستقيم، صراط الله العزيز الحميد.

- والوصية بعدم التفرق.

إن هذه الوصايا فيها قوام الدين كله:

إنها قوام حياة الضمير بالتوحيد.

وقوام حياة الأسرة بأجيالها المتتابعة.

وقوام حياة المجتمع بالتكافل والطهارة فيما يجري فيه من معاملات.

وقوام حياة الإنسانية وما يحوط الحقوق فيها من ضمانات مرتبطة بعهد الله.

وهذا هو صراط الله المستقيم، وكل ما عداه سبل تتفرق بالناس عن سبيله الواصل الوحيد.

إن تكرار ذكر الوصية في ختام هذه الآيات يوحي بضرورة العودة إليها وقراءتها مرة بعد مرة.. وبخاصة أن الموصي هو الله تعالى.

﴿ذَلِكَمُوصِيَّتُهُ لِقَوْمٍ ذَكَّيْنًا، وَرِشْوَةً لِّهَاجِرِينَ﴾

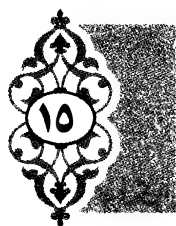
﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

إنها رسالة بل هي رسائل قد نقرأها في دقائق، ولكن تطبيقها ينتشر حتى يغطي مساحة الحياة.



المؤمنون حقاً



قال الله تعالى:

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ
وَلِذَا قِيلَ عَلَيْهِمْ ءَايَتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ
• الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ •
أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ
وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٢ - ٤].

في هذه الآيات الكريمة بيان لأوصاف المؤمنين.

وأول ما يطالع القارئ لهذه الآيات: كلمة ﴿ إِنَّمَا ﴾ التي تفيد الحصر، فالأوصاف المذكورة في الآيات الكريمة هي التي تحقق وجود الإيمان، ومن لم توجد لديه هذه الصفات بجملتها فليس من المؤمنين، ويؤكد هذا المعنى وهو الحصر ختام هذه الصفات بقوله تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾.

وهذه الصفات المذكورة هي: خمس، ثلاثة منها تتعلق بفعل القلب، واثنان منها تتعلق بفعل الجسم.

• أما ما يتعلق منها بالقلوب فهي:

- ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾. أي: خافت، وهذا الخوف مبعثه استشعار جلال الله تعالى وعظمته، واستعظام شأنه، وهو خوف مشوب بالحب والهيبة.

- ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾. أي: يقيناً وطمأنينة نفس، فإن سماع كلام الله تعالى يؤكد الإيمان الذي استقر في نفس المؤمن ويزيده ثباتاً وقوة.

- ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾. قال ابن كثير: «أي لا يرجون سواه، ولا يقصدون إلا إياه، ولا يلوذون إلا بجنابه، ولا يطلبون الحوائج إلا منه، ولا يرغبون إلا إليه، ويعلمون أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه المتصرف في المُلْك لا شريك له ولا معقب لحكمه، وهو سريع الحساب».

جاء في الظلال: «وليس الاتكال على الله وحده بمانع من اتخاذ الأسباب، فالمؤمن يتخذ الأسباب من باب الإيمان بالله وطاعته فيما يأمر به من اتخاذها.



ولكنه لا يجعل الأسباب هي التي تنشئ النتائج فيتكلم عليها، إن الذي ينشئ النتائج - كما ينشئ الأسباب - هو قدر الله، ولا علاقة بين السبب والنتيجة في شعور المؤمن. اتخاذ السبب عبادة بالطاعة، وتحقق النتيجة قدر من الله مستقل عن السبب لا يقدر عليه إلا الله.

وبذلك يتحرر شعور المؤمن من التعبد للأسباب والتعلق بها، وفي الوقت ذاته هو يستوفيهما بقدر طاقته لينال ثواب طاعة الله في استيفائها.

هذا ما يتعلق بصفات القلوب، وأما يتعلق بالأجسام فهو:

- ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾. قال في الظلال: «وهنا نرى للإيمان صورة حركية ظاهرة - بعدما رأيناه في الصفات السابقة مشاعر قلبية باطنة - ذلك أن الإيمان هو ما وقر في القلب وصدقه العمل، فالعمل هو الدلالة الظاهرة للإيمان التي لا بد من ظهورها للعيان، لتشهد بالوجود الفعلي لهذا الإيمان.

وإقامة الصلاة ليست هي مجرد أدائها، إنما هي الأداء الذي يحقق حقيقتها، الأداء الكامل اللائق بوقفة العابد في

حضرة المعبود - سبحانه - لا مجرد القراءة والقيام والركوع والسجود، والقلب غافل، وهي في صورتها الكاملة تلك تشهد للإيمان بالوجود فعلاً.

- ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ في الزكاة وغير الزكاة، وهم ينفقون «مما رزقناهم» فهو بعض مما رزقهم الرزاق.. وهو كثير لا يحصى، فإذا انفقوا فإنما ينفقون بعضه ويحتفظون ببقيته، والأصل هو رزق الله وحده.

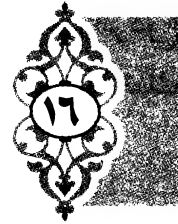
تلك هي الصفات التي حدد الله بها الإيمان في هذا المقام».

وبعد: إذا كان وجود هذه الصفات هو مقياس وجود الإيمان، فهل يقيس الناس بعضهم بعضاً بهذا المقياس، وهل يحكمون بالإيمان لمن وجدت فيه؟

إن هذا المقياس وضعه الله ليقبس كل إنسان به نفسه، فيحمد الله إذا كان مستكماً لهذه الصفات، ويتدارك نفسه باستكمال النقص إذا وجد.

إنه لا يمكن لأحد أن يحكم على أحد بما يتعلق بالمشاعر والصفات القلبية، وهي الصفات الثلاث الأولى في هذا المقياس فكيف يمكنه أن يحكم على الآخرين به؟!

دار السلام



قال الله تعالى:

﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَيْهَا أَتْنَاهَا أَمْرًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ • وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ •﴾
[يونس: ٢٤، ٢٥].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: «ضرب الله تبارك وتعالى مثلاً لزهرة الحياة الدنيا وزينتها، وسرعة انقضائها وزوالها، بالنبات الذي أخرج الله من الأرض، بما أنزل من السماء، مما يأكل الناس من زرع وثمار على اختلاف أنواعها وأصنافها، وما تأكل الأنعام من قصب وغيره، حتى إذا أخذت الأرض زينتها الفانية بما خرج في رباهها من زهور نضرة مختلفة الأشكال

والألوان، وظن الذين زرعوها وغرسوها أنهم قادرون على جذاذاها وحصادها.

فبينما هم كذلك إذ جاءتها صاعقة أو ريح شديدة باردة - في ساعة من ليل أو نهار - فأبيست أوراقها وأتلفت ثمارها، بعد تلك الخضرة والنضارة، فأصبحت كأنها ما كانت حيناً قبل ذلك، وهكذا الأمور بعد زوالها كأنها لم تكن.

كذلك يبين الله الحجج والأدلة لقوم يتفكرون، فيعتبرون بهذا المثل، في زوال الدنيا من أهلها سريعاً، مع اغترارهم بها وتمكنهم وثقتهم بمواعيدها، ونقلتها عنهم، فإن من طبعها الهرب ممن طلبها والطلب لمن هرب منها.

ولما ذكر الله تعالى الدنيا وسرعة زوالها، رغب في الجنة ودعا إليها وسماها، دار السلام - أي من الآفات والنقائص والنكبات - فقال: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوْا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

إن الرسالة في هذا النص الكريم موجهة إلى الغافلين الذين تستغرق الدنيا أعمارهم لينالوا منها بعض المتاع ويضيعون الآخرة في سبيل ذلك.

إن الآية الكريمة تضع الحقيقة بين أيدينا وهي: أن هذه الدنيا لا أمن فيها ولا استقرار، ولا ثبات ولا اطمئنان، فقد



يزرع الإنسان ولا يحصد، وقد يحصد ولا يتاح له التمتع
بثمرة حصاده.

وإذا كان الأمر كذلك فينبغي لكل عاقل أن يستجيب
إلى دعوة الله فيعمل لآخرته التي هي دار السلام كما يعمل
لدنياه، بل يكون جل اهتمامه بتلك الدار التي مآله إليها.

وهذا لا يعني أن يترك الإنسان دنياه لينصرف إلى
آخرته، وإنما يعني أن يحسن التوازن بين الدنيا والآخرة.
فيعمل لكل منهما بقدر بقاءه فيهما وخير ما يوضح الطريق
ويحدد هذا التوازن هو قوله تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ
اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾.



الرقابة الدائمة

١٧

قال الله تعالى:

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [يونس: ٦١].

جاء في الظلال: «إن الشعور بالله على النحو الذي تصوره الآية الكريمة شعور مطمئن ومخيف معاً، مؤنس ومرهب معاً.. وكيف بهذا المخلوق البشري وهو مشغول بشأن من شؤونه يحس أن الله معه، شاهد أمره وحاضر شأنه، الله بكل عظمته، وبكل هيئته، وبكل جبروته، وبكل قوته، الله خالق هذا الكون وهو عليه هين، ومدبر هذا الكون ما جلّ منه وما هان.. الله مع هذا المخلوق البشري.



إنه شعور رهيب.. ولكنه كذلك شعور مؤنس مطمئن.
إن هذه الذرة التائهة ليست متروكة بلا رعاية ولا معونة ولا ولاية.. إن الله معها.

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾.

إنه ليس شمول العلم وحده، ولكن شمول الرعاية، ثم شمول الرقابة.

﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾.

ويسبح الخيال مع الذرات السابحة في الأرض أو في السماء - ومعها علم الله - ومع ما هو أصغر من الذرة وأكبر محصوراً في علم الله، ويرتعش الوجدان إشفافاً ورهبة، ويخضع القلب إجلالاً وتقوى، حتى يطامن الإيمان من الروعة والرهبة، ويهدئ القلب الواجف بأنس القرب من الله.

وقال ابن كثير رحمه الله : «يخبر الله نبيه ﷺ أنه يعلم جميع أحواله وأحوال أمته، وجميع الخلائق، في كل ساعة وأوان ولحظة، وأنه لا يعزب عن علمه وبصره مثقال ذرة في حقارتها وصغرها في السماوات ولا في الأرض، ولا أصغر منها ولا أكبر إلا في كتاب مبين».



إنها رسالة خطيرة تلك التي تحملها هذه الآية الكريمة تقول لكل إنسان: إنك تحت المراقبة في كل لحظة من لحظات حياتك، فخذ حذرك، وراقب نفسك واحسب حركاتك وسكناتك.. كما جاء في الصحيح: (اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك).

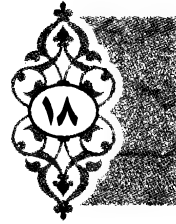
أجل (فإنه يراك) فليستقر هذا المعنى في فكرك ولتضبط تصرفاتك وفقاً لذلك.

وأخيراً: لقد استوقفني تخصيص ذكر «تلاوة القرآن» في الآية الكريمة بين عموميين، الأول: قوله ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ والثاني: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾.

ولعل في ذلك إشارة إلى فضل هذا العمل وشرفه فخصصه بالذكر، فأى حال أفضل من وقفة بين يدي الله تعالى يُقرأ فيها القرآن، أو جلسة بين يدي كتاب الله تعالى يناجي الإنسان ربه تعالى بتلاوة كلامه سبحانه.



الاطمئنان بالذكر



قال الله تعالى:

﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨].

«ترسم الآية الكريمة صورة شفيفة للقلوب المؤمنة، في جو من الطمأنينة والأنس والسلام.

تطمئن بإحساسها بالصلة بالله، والأنس بجواره، والأمن في جانبه وحماه، تطمئن من قلق الوحدة وحيرة الطريق، بإدراك الحكمة في الخلق والمبدأ والمصير، وتطمئن بالشعور بالحماية من كل اعتداء، ومن كل ضرر، ومن كل شر إلا بما يشاء، مع الرضى بالابتلاء والصبر على البلاء، وتطمئن برحمته في الهداية والرزق والستر في الدنيا والآخرة.

﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾

ذلك الاطمئنان بذكر الله في قلوب المؤمنين حقيقة، يعرفها الذين خالطت بشاشة الإيمان قلوبهم، فاتصلت بالله.

يعرفونها، ولا يملكون بالكلمات أن ينقلوها إلى الآخرين الذين لم يعرفوها، لأنها لا تنقل بالكلمات، إنما تسري في القلب فيستروحها ويهش لها، ويندى بها ويستريح إليها ويستشعر الطمأنينة والسلام.

وليس أشقى على وجه هذه الأرض ممن يحرمون طمأنينة الأنس إلى الله.

وليس أشقى ممن ينطلق في هذه الأرض مبتوت الصلة بما حوله في الكون، لأنه انفصم من العروة الوثقى التي تربطه بما حوله في الله خالق الكون.

ليس أشقى ممن يعيش لا يدري لمَ جاء؟ ولمَ يذهب؟ ولمَ يعاني ما يعاني في الحياة؟

وإن هناك للحظات في الحياة لا يصمد لها بشر إلا أن يكون مرتكناً إلى الله مطمئناً إلى حماه، مهما أوتي من القوة والثبات والصلابة.. ففي الحياة لحظات تعصف بهذا كله فلا يصمد لها إلا المطمئنون بالله: ﴿أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ﴾^(١).

اللهم اجعل قلوبنا مطمئنة بذكرك.

(١) عن الظلال.



قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ :

«الطمأنينة: سكون القلب إلى الشيء، وعدم اضطرابه وقلقه.

وفي المقصود بـ «ذكر الله» في الآية الكريمة قولان: أحدهما: أنه ذكر العبد ربه، فإنه يطمئن إليه قلبه ويسكن، فإذا اضطرب القلب، فليس له ما يطمئن به سوى ذكر الله تعالى.

والثاني: أن ذكر الله ها هنا: القرآن، وهو ذكره الذي أنزله على رسوله، به طمأنينة قلوب المؤمنين.

فإن القلب لا يطمئن إلا بالإيمان واليقين، ولا سبيل إلى حصولهما إلا من القرآن، فإن سكون القلب وطمأنينته من يقينه، واضطرابه وقلقه من شكه، والقرآن هو المحصل لليقين، الدافع للشكوك والظنون والأوهام، فلا تطمئن قلوب المؤمنين إلا به، وهذا القول هو المختار»^(١).



جوامع الخير

١٩

قال الله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَنِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

هذه الآية الكريمة آية جامعة في ميدان الأخلاق فقد أمرت بكل خير، ونهت عن كل شر، وقد نقل ابن كثير عن ابن مسعود رضي الله عنه قوله: «إن أجمع آية في القرآن في سورة النحل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَنِ﴾ الآية».

وإن المفردات التي ورد ذكرها في الآية لكل منها شواهد كثيرة من آيات الذكر الحكيم، فما جاء في الآية الكريمة كله مما تكرر الحض عليه أو النهي عنه في الكتاب العزيز.



ويحسن بنا أن نقف أمام ما جاءت به الآية الكريمة:

(١) أول الأشياء المأمور بها «العدل».

«العدل الذي يكفل لكل فرد ولكل جماعة ولكل قوم قاعدة ثابتة للتعامل، لا تميل مع الهوى، ولا تتأثر بالود والبغض، ولا تتبدل مجارة للصهر والنسب، والغنى والفقر، والقوة والضعف، إنما تمضي في طريقها تكيل بمكيال واحد للجميع، وتزن بميزان واحد للجميع».

(٢) وإلى جوار العدل «الإحسان».. يلفظ من حدة العدل الصارم الجازم، ويدع الباب مفتوحاً لمن يريد أن يتسامح في بعض حقه إثارة لودّ القلوب، وشفاء لغل الصدور، ولمن يريد أن ينهض بما فوق العدل الواجب عليه، ليداوي جرحاً أو يكسب فضلاً.

والإحسان أوسع مدلولاً، فكل عمل طيب إحسان، والأمر بالإحسان يشمل كل عمل وكل تعامل، فيشمل محيط الحياة كلها في علاقات العبد بربه، وعلاقاته بأسرته، وعلاقاته بالجماعة، وعلاقاته بالبشرية جميعاً.

(٣) ومن الإحسان «إيتاء ذي القربى» وإنما يبرز الأمر به تعظيماً لشأنه، وتوكيداً عليه.



وما يبني هذا على عصبية الأسرة، إنما يبينه على مبدأ التكافل الذي يتدرج به الإسلام من المحيط المحلي إلى المحيط العام، وفق نظريته التنظيمية لهذا التكافل.

(٤) ﴿وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾.

والفحشاء: كل أمر يفحش، أي يتجاوز الحد، ومنه: ما خصص به غالباً وهو فاحشة الاعتداء على العرض، لأنه فعل فاحش فيه اعتداء، وفيه تجاوز للحد، حتى ليدل على الفحشاء ويختص بها.

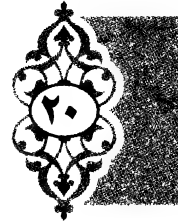
والمنكر: كل فعل تنكره الفطرة، ومن ثم تنكره الشريعة، فهي شريعة الفطرة وقد تنحرف الفطرة أحياناً فتبقى الشريعة ثابتة تشير إلى أصل الفطرة قبل انحرافها.

والبغي: الظلم، وتجاوز الحق والعدل.

وتختتم الآية بقوله: ﴿يَعِظُكُمْ﴾. أي: يأمركم بما يأمركم به من الخير، وينهاكم عما ينهاكم عنه من الشر ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

إنها رسالة تذكير.. مختصرة ولكنها عامة شاملة.

ولما كانت الآية عامة داعية للخير محذرة من الشر، فقد اعتاد كثير من خطباء الجمعة أن يختموا خطبهم بها.



الهداية إلى الاستقامة

قال الله تعالى:

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا • وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الإسراء: ٩، ١٠].

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ •

«هكذا - ﴿أَقْوَمُ﴾ - على وجه الإطلاق فيمن يهديهم، وفيما يهديهم» فيشمل الهدى أقواماً وأجيالاً بلا حدود من زمان أو مكان، ويشمل ما يهديهم إليه: كل منهج وكل طريق، وكل خير يهدي إليه البشر في كل زمان ومكان.

- يهدي للتي هي أقوم في عالم الضمير والشعور، بالعقيدة الواضحة البسيطة التي لا تعقيد فيها ولا غموض، والتي تطلق الروح من أثقال الوهم والخرافة، وتطلق الطاقات البشرية الصالحة للعمل والبناء، وتربط



بين نواميس الكون الطبيعية ونواتميس الفطرة البشرية في تناسق واتساق.

- ويهدي للتي هي أقوم في التنسيق بين ظاهر الإنسان وباطنه، وبين مشاعره وسلوكه، وبين عقيدته وعمله، فإذا هي كلها مشدودة إلى العروة الوثقى التي لا تنفصم، متطلعة إلى أعلى وهي مستقرة على الأرض، وإذا العمل عبادة متى توجه الإنسان به إلى الله، ولو كان هذا العمل متاعاً واستمتاعاً بالحياة.

- ويهدي للتي هي أقوم في عالم العبادة، بالموازنة بين التكاليف والطاقة فلا تشق التكاليف على النفس حتى تمل وتيأس من الوفاء، ولا تسهل وترخص حتى تشيع في النفس الرخاوة والاستهتار، ولا تتجاوز القصد والاعتدال وحدود الاحتمال.

- ويهدي للتي هي أقوم في علاقات الناس بعضهم ببعض، أفراداً وأزواجاً، وحكومات وشعوباً، ودولاً وأجناساً، ويقيم هذه العلاقات على الأسس الوطيدة الثابتة، التي لا تتأثر بالرأي والهوى، ولا تميل مع المودة والشنآن، ولا تصرفها المصالح والأغراض.



هذه الأسس التي أقامها العليم الخبير لخلقه، وهو أعلم بمن خلق، وأعرف بما يصلح لهم في كل أرض وفي كل جيل، فيهديهم للتي هي أقوم في نظام الحكم، ونظام المال، ونظام الاجتماع، ونظام التعامل الدولي اللائق بعالم الإنسان.

- ويهدي للتي هي أقوم في تبني الديانات السماوية جميعها، والربط بينها كلها، وتعظيم مقدساتها، وصيانة حرمتها، فإذا البشرية كلها بجميع عقائدها السماوية في سلام ووثام^(١).

﴿وَيَبْشِرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ • وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿

إن هذا القرآن الذي يهدي للتي هي أقوم، من جملة هدايته أنه يبشر المؤمنين الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالأجر الكبير، كما يتوعد الكافرين الذين لا يؤمنون بالآخرة بالعذاب الأليم الذي ينتظرهم.

وتخصيص ذكر عدم إيمانهم بالآخرة من بين بقية أركان الإيمان، ذلك - والله أعلم - لأن الإيمان باليوم الآخر



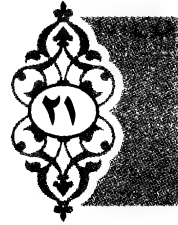
هو الذي يصحح سلوك الإنسان في الحياة الدنيا، لأنه يؤمن أنه محاسب عليه في الآخرة.

وبعد:

فإن الرسالة المستفادة من الآيتين هي التعرف على مكانة القرآن الكريم وأن على المسلم أن يدور معه حيث دار، فينفذ أوامره، وينتهي عما نهى عنه، وأن تكون صلته به دائمة فيتلوها ما أُتيح له ذلك.



التسبيح



قال الله تعالى:

﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: «يقول تعالى: تقدسه السماوات السبع والأرض ومن فيهن، أي من المخلوقات، وتنزهه وتعظمه وتبجله وتكبره عما يقول هؤلاء المشركون وتشهد له بالوحدانية في ربوبيته وإلهيته».

وجاء في الظلال: «مشهد فريد، تحت عرش الله، يتوجه كله إلى الله، يسبح له ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ...﴾».

وهو تعبير تنبض به كل ذرة في هذا الكون الكبير، وتنتفض روحاً حيّة تسبح الله، فإذا الكون كله حركة وحياة، وإذا الوجود كله تسبيحة واحدة شجية، ترتفع في جلال إلى الخالق الواحد الكبير المتعال.



وإنه لمشهد كوني فريد، حين يتصور القلب: كل حصاة وكل حجر، كل حبة وكل ورقة، كل زهرة وكل ثمرة، كل نبتة وكل شجرة، كل حشرة وكل زاحفة، كل حيوان وكل إنسان كل دابة على الأرض وكل سابحة في الماء والهواء... ومعها سكان السماء.. كلها تسبح الله وتتوجه إليه في علاه.

وإن الوجدان ليرتعش وهو يستشعر الحياة تدب في كل ما حوله، مما يراه ومما لا يراه، وكلما همت يده أن تلمس شيئاً، وكلما همتّ رجله أن تطأ شيئاً.. سمعه يسبح لله، وينبض بالحياة.

﴿وَلَا يَمْنُ شَيْءٌ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ يسبح بطريقته ولغته، ولكن لا تفقهون تسبيحهم، لا تفقهونه لأنكم لم تسمعوا بقلوبكم.

﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾.

وذكر الحلم هنا والغفران بمناسبة ما يبدو من البشر من تقصير في ظل هذا الموكب الكوني المسبح بحمد الله، بينما البشر في جحود، وفيهم من يشرك بالله، ومن ينسب له البنات، ومن يغفل عن حمده وتسبيحه.

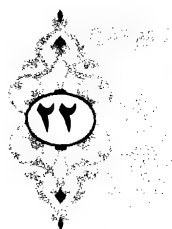


والبشر أولى من كل شيء، في هذا الكون بالتسبيح والتحميد والمعرفة والتوحيد، ولولا حلم الله وغفرانه لأخذ الشر أخذ عزيز مقتدر، ولكنه يمهلهم ويذكّرهم ويعظهم ويزجرهم إنه كان حليماً غفوراً^(١).

وأخيراً، فإن الرسالة التي تبعث بها هذه الآية، هي أنه ينبغي على كل مسلم أن يشارك في عملية التسبيح هذه، حتى لا يكون نشازاً في هذا الوجود، وحتى لا يكون أقل من بقية الأشياء وقد قال ﷺ: (ليكن لسانك رطباً من ذكر الله).



زلزلة الساعة



قال الله تعالى:

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ • يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ١، ٢].

هذا مطلع سورة الحج يبدأ بنداء الناس - كل الناس - ودعوتهم إلى تقوى الله، وكأن هذه الدعوة معللة بما بعدها وهو عرض مشهد من مشاهد يوم القيامة، فالتقوى مطلوبة حتى ينجو الإنسان من هول ذلك اليوم.

وبعد هذا المطلع والنداء، تُعرض حقيقة من الحقائق التي ستكون في الدار الآخرة وهي أن زلزللة الساعة شيء عظيم.

إنها صورة مجملة ومع ذلك فهي مخيفة مرعبة، ف«الزلزلة» شيء مرعب بحد ذاتها، فإذا كانت «زلزلة



الساعة» فهي شيء آخر غير ما تعارفه الناس في الدنيا،
ويكفي لمعرفة هولها: أن يصفها الله تعالى بالشيء
العظيم.

وبعد هذا الوصف المجمل، يعرض القرآن الكريم
مشاهد مما يقع في ذلك اليوم، مشاهد قليلة ولكنها معبرة
ومصورة لعظم ما ينتاب الناس يومئذ.

يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت، ولا يحدث
هذا للرضعة إلا إذا انتابها ما يغيّب وعيها به.. وتغيب عن
نفسها.

وفي هذا اليوم تضع كل ذات حمل حملها.. وهذا
يكون من الهول المروع الذي يكون أمامها، بل إنها
فيه.

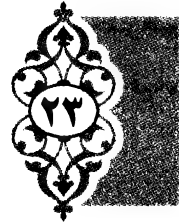
ويصبح الناس سكارى، في حركاتهم وفي تصرفاتهم،
ولكن سكرهم ليس سببه شرب المسكرات وإنما هول
المشاهد التي يرونها، وما هم فيه.

إن هذه المشاهد مبعثها أمر واحد هو الذي أذهل
المرضعة وجعل الحامل تضع حملها وبدا الناس سكارى
وما هم بسكارى.. (ولكن عذاب الله شديد).



يعرض القرآن الكريم هذا المشهد ليأخذ الناس حذرهم
ويستعدوا لهذا الموقف وتفادي الوقوع فيما يحدث فيه،
وذلك بتقوى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.





ضعف الطالب والمطلوب

قال الله تعالى:

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٍ فَاَسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ * مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٧٣، ٧٤].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ :

«حقيق على كل عبد أن يستمع قلبه لهذا المثل، ويتدبره حق تدبره، فإنه يقطع مواد الشرك من قلبه؛ وذلك أن المعبود أقل درجاته أن يقدر على إيجاد ما ينفع عابده، وإعدام ما يضره.

والآلهة التي يعبدها المشركون من دون الله لن تقدر على خلق الذباب، ولو اجتمعوا كلهم لخلقه، فكيف ما هو



أكبر منه؟ ولا يقدرّون على الانتصار من الذباب إذا سلبهم شيئاً مما عليهم من طيب ونحوه، فيستنقذونه منه، فلا هم قادرون على خلق الذباب الذي هو أضعف الحيوانات، ولا على الانتصار منه واسترجاع ما سلبهم إياه، فلا أعجز من هذه الآلهة...!

هذا المثل من أبلغ ما أنزله الله سبحانه في بطلان الشرك وتجهيل أهله، وتقبيح عقولهم، والشهادة على أن الشيطان قد تلاعب بهم أعظم من تلاعب الصبيان بالكرة...^(١).

وقال في الظلال:

«هذا المثل يضع قاعدة ويقرر حقيقة ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾».

كل من تدعون من دون الله من آلهة مدعاة، من أصنام وأوثان، ومن أشخاص وقيم وأوضاع، تستنصرون بها من دون الله وتستعينون بقوتها، وتطلبون منها النصر والجاه.. كلهم لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له.

(١) إعلام الموقعين (١/٢٣٥).



والذباب صغير حقير، ولكن هؤلاء الذين يدعونهم
آلهة لا يقدرّون - ولو اجتمعوا وتساندوا - على خلق هذا
الذباب الصغير الحقير.

وخلق الذباب مستحيل كخلق الجمل والفيل، لأنه
يحتوي على ذلك السر المعجز، سر الحياة، فيستوي في
استحالة خلقه مع الجمل والفيل.

ولكن الأسلوب القرآني المعجز يختار الذباب الصغير
الحقير لأن العجز عن خلقه يلقي في الحس ظل الضعف
أكثر مما يلقيه العجز عن خلق الجمل والفيل! دون أن
يخلّ هذا بالحقيقة في التعبير، وهذا من بدائع الأسلوب
القرآني العجيب.

ثم يخطو خطوة أوسع في إبراز الضعف المزري ﴿وَلِإِنْ
يَسْلُبْهُمْ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ﴾.

والآلهة المدعاة لا تملك استنقاذ شيء من الذباب
حين يسلبها إياه، سواء كانت أصناماً أو أوثاناً أو أشخاصاً.

وقد اختير الذباب بالذات وهو ضعيف حقير، وهو في
الوقت ذاته يحمل أخطر الأمراض، وقد يسلب العيون
والجوارح..



وهذه حقيقة أخرى كذلك يستخدمها الأسلوب القرآني المعجز، ولو قال: وإن تسلبهم السباع شيئاً لا يستنقذوه منها.. لأوحى ذلك بالقوة بدل الضعف، والسباع لا تسلب شيئاً أعظم مما يسلبه الذباب، ولكنه الأسلوب القرآني العجيب.

ويختتم ذلك المثل المصور الموحى بهذا التعقيب ﴿صُعِفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ ليقرر ما ألقاه المثل من ظلال، وما أوحى به إلى المشاعر والقلوب.

وفي أنسب الظروف.. والمشاعر تفيض بالزراية والاحتقار لضعف الآلهة المدعاة، يندد بسوء تقديرهم لله. ويعرض قوة الله الحق بأنه إله:

﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾

- ما قدروا الله حق قدره، وهم يشركون به تلك الآلهة الكليلة العاجزة، التي لا تخلق ذباباً ولو اجتمعت له، بل لا تستنقذ ما يسلبها الذباب إياه.

- وما قدر الله حق قدره، وهم يرون آثار قدرته، وبدائع مخلوقاته، ثم يشركون به من لا يستطيعون خلق الذباب الحقيق.



- وما قدرُوا اللهَ حقَ قدره، وهم يستعينون بتلك الالهة العاجزة.. ويدعون اللهَ القوي العزيز..».



الذين يرثون الفردوس



قال الله تعالى:

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ • الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ •
وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ • وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ •
وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ • إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا
مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ • فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ
فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ • وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ •
وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ • أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ •
الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١ - ١١].

تجمع هذه الآيات الكريمة صفات الفلاح التي توصل
من جمعها إلى الفردوس وهو المكان الأعلى في الجنة.

وفي الآية تقرير القاعدة الأساس التي لا بد منها حتى
يكون لتلك الصفات فائدتها، وهي «الإيمان» فالمؤمنون
هم المفلحون إذا قاموا بتلك الأعمال التي ذكرتها الآيات
الكريمة وهي:



- ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ أي خائفون، قال علي رضي الله عنه: الخشوع: خشوع القلب، وقال الحسن البصري: كان خشوعهم في قلوبهم فغضوا بذلك أبصارهم وخفضوا الجناح. والخشوع في الصلاة: إنما يحصل لمن فرغ قلبه لها، واشتغل بها عما عداها وآثرها على غيرها، وحيث تكون راحة وقرّة عين.

- ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ واللغو: هو ما لا فائدة فيه من الأقوال والأفعال.

- ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ والزكاة قد تكون زكاة النفس من الدنس، وقد تكون زكاة الأموال، والمؤمن يقوم بالأمرين معاً، فهو يعمل على تزكية نفسه، وكذلك يزكي أمواله.

- ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ أي: الذين حفظوا فروجهم من الحرام، فلا يقعون فيما نهاهم الله عنه، ولا يقربون سوى أزواجهم.

- ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ أي: إذا أؤتمنوا لم يخونوا، بل يؤدون الأمانات إلى أهلها، وإذا ما عاهدوا أو عاقدوا أوفوا بذلك.



- ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ أي: يواظبون عليها في مواقيتها، قال قتادة، يحافظون على مواقيتها وركوعها وسجودها.

والملاحظ: أن الله تعالى قد افتتح ذكر هذه الصفات الحميدة بالصلاة، واختتمها بالصلاة، فدل ذلك على أفضليتها.

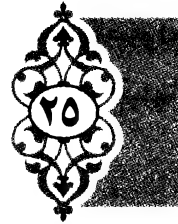
تلك هي الصفات التي يفلح أصحابها ويفوزون بما وعدهم الله تعالى به، وهو الفردوس من الجنة.

والرسالة التي توجهها هذه الآيات الكريمة لمن قرأها، أن يراجع حسابه، ويتفحص أعماله، فإن كانت هذه الصفات متوفرة لديه، فليحمد الله تعالى وليستمر على ذلك.

وإذا وجد نقصاً، فليعمل على تداركه، وليستكمل النواقص حتى يكون في عداد الوارثين، الذين يرثون الفردوس، وتلك النعمة العظمى.



القلوب الوجلة



قال الله تعالى:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ
يَأْتِيَتْ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ * وَالَّذِينَ
يُقِيمُونَ صَلاةً وَأَتَوْا قُلُوبَهُمْ وَجْهَهُ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ * أُولَٰئِكَ
يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٧ - ٦١].

في هذه الآيات الكريمة ذكر بعض صفات المؤمنين
الذين يسارعون في الخيرات.

- فهم من خشية ربهم مشفقون، فهم مع إحسانهم
وإيمانهم وعملهم الصالح مشفقون من الله خائفون منه
وجلون. كما قال الحسن البصري: إن المؤمن جمع إحساناً
وشفقة، وإن الكافر جمع إساءة وأمناً.

- وهم بآيات ربهم يؤمنون: يؤمنون بآياته الشرعية
والكونية.

- وهم بربهم لا يشركون: فهم يوحّدونه ويعلمون أن لا إله إلا الله.

- وهم الذين ﴿يُؤْتُونَ مَاءً آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ أي: يعطون العطاء وهم خائفون وجلون أن لا يتقبل منهم لخوفهم أن يكونوا قد قصروا في بعض ما ينبغي أن يقوموا به.

أخرج الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه: عن عائشة رضي الله عنها قالت: سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ قالت عائشة: هم الذين يشربون الخمر، ويسرقون؟ قال: (لا، يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون، وهم يخافون أن لا يقبل منهم، أولئك الذين يسارعون في الخيرات).

إن قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ يحمل رسالة ينبغي أن يتوقف عندها كل قارئ، فهو لاء يقومون بالعطاء وفعل الخيرات وقلوبهم وجلة ألا يتقبل منهم، وذلك أن كل عمل لله ينبغي أن يكون خالصاً له بعيداً عن الرياء وحب السمعة وما أشبه ذلك مما يفسد العمل، فهم خائفون من تقصيرهم.. ومع ذلك فهذا الخوف أهّلهم أن يصفهم الله بأنهم (يسارعون في الخيرات).



إن الذين يقومون بالعمل الخير وهم خائفون ألا يتقبل منهم، وقد توفرت فيهم الصفات السابقة المذكورة في الآية، يبشرهم ربهم بأنهم هم المسارعون في الخيرات.

فهذا الخوف من عدم قبول العمل صفة من الصفات الخيرة فيهم، فكان ثوابهم: أن يصفهم الله تعالى بأنهم المسارعون في الخيرات.

وبهذا بدأت الآية بذكر الخشية من الله وانتهت بذلك وهو وجل قلوبهم..



عباد الرحمن

٢٦

قال الله تعالى:

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا • وَالَّذِينَ يَسْتُرُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا • وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا • إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا • وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا • وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا • يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا • إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا • وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا • وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا • وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِثَايِلَتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا

عَلَيْهَا صُماً وَعُمِيَانَا * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ
 أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا *
 أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَلِلْقَوْتِ فِيهَا
 نَحْيَةٌ وَسَلَامٌ * خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا *
 [الفرقان: ٦٣ - ٧٦].

ضمت هذه الآيات الكريمة مجموعة من التوجيهات
 والأوامر والنواهي والتحذيرات ينبغي لكل قارئ أن يقرأها
 بروية وهدوء حتى يتفهم ما جاء فيها.

والآيات واضحة المعاني لكل قارئ، لا تحتاج إلى
 الإطالة في الشرح أو التعليق عليها ولهذا سوف أذكرها
 الواحدة بعد الأخرى، مع تعليق مختصر إذا احتاج الأمر
 إلى ذلك.

- ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ أي:
 بسكينة، فليست هي مشية المتكبر المتعالي على الناس،
 وليس بمشية المتأوت الذي يمشي مشية المرضى وما هو
 بمريض.

- ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ أي: إذا سفه
 عليهم الجاهل بالقول السيئ، لم يقابلوه عليه بمثله، بل
 يعفون ويصفحون ولا يقولون إلا خيراً.

- ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا﴾ أي: في طاعة الله وعبادته.

- ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ * إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا * ومعنى «غراماً» أي ملازماً دائماً مستقراً.

فهم يخافون عذاب جهنم ويتوجهون إلى الله تعالى بالدعاء ليصرف عنهم ذلك، فهذا العذاب فيها دائم مستمر، ومن كانت جهنم مصيره فهي بئس المقر والمقام...

- ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ أي: هم وسط في إنفاقهم، فليسوا بالمبذرين فيصرفون فوق الحاجة، وليسوا بالبخلاء الذي يقصرون في حق أهلهم فلا يكفونهم حاجاتهم.

- ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ *
- ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ *
- ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾ *

- ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ * يُضَعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيُخْلَدُ فِيهِ مُهَانًا *.



إن الإشرak بالله وقتل النفس والزنا من الكبائر التي من فعلها فقد توعد الله بعذاب أليم في جهنم، حيث يضاعف له العذاب.. إلا من تاب.

﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا * وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَنْتُهِبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا *﴾.

من رحمة الله أنه فتح باب التوبة لكل مذنّب، فمن أذنب يستطيع الرجوع إلى الاستقامة بالتوبة التي يصاحبها العمل الصالح.. فهو لاء يبدل الله سيئاتهم حسنات.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: فيه قولان.

أحدهما: أنهم بدلوا مكان عمل السيئات بعمل الحسنات، قال الحسن البصري: أبدلهم الله بالعمل السيء العمل الصالح وأبدلهم بالشرك إخلاصاً.

والثاني: أن تلك السيئات الماضية تنقلب بنفس التوبة النصوح حسنات، وما ذلك إلا لأنه كلما تذكر ما مضى ندم واسترجع واستغفر، فينقلب الذنب طاعة بهذا الاعتبار.

- ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ أي: لا يحضرون مجالس الباطل ولا يجالسون أهل المعاصي - وليس



المقصود الشهادة بالزور، لأنه لم يقل: لا يشهدون بالزور، وإن كانت الشهادة بالزور من المعاصي.

- ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ أي: لا يحضرون الزور، وإذا مروا به مروا ولم يتوقفوا ولم يتدنسوا بتلك المجالس، فللمؤمن ما يشغله عن اللغو والهذر.

- ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ قال مقاتل: إذا وعظوا بالقرآن لم يقعوا عليه صمًا، لم يسمعوه، وعميانًا لم يبصروه، ولكنهم سمعوا وأبصروا وأيقنوا به.

قال ابن كثير: قال قتادة: يقول: لم يصموا عن الحق ولم يعموا فيه، فهم قوم عقلوا عن الحق وانتفعوا بما سمعوا من كتابه. وقال الحسن البصري: كم من رجل يقرؤها ويخرُّ عليها أصم أعمى.

- ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾.

قال ابن كثير: يعني الذين يسألون الله أن يخرج من أصلاهم من ذرياتهم من يطيعه ويعبده وحده. قال عكرمة: لم يريدوا بذلك صباحة ولا جمالاً ولكن أرادوا أن يكونوا مطيعين.



- ﴿وَجَعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ قال ابن عباس: أئمة يقتدى بنا في الخير ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا * خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾.

هذا جزاء أولئك الذين اتصفوا بهذه الصفات الجميلة، إنه الغرفة وهي الجنة، يُبتدرون فيها بالتحية والإكرام والتوقير والاحترام، خالدين فيها وما أحسنها من مستقر ومقام - اللهم اجعلنا من أهلها، إنك نعم المسؤول.



عاقبة التكبر والفساد



قال الله تعالى:

﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعُلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُنْقِذِينَ ﴾ [القصص: ٨٣].

جاءت هذه الآية الكريمة تعقيماً على قصة قارون - المعروفة - وقد خرج على قومه في زينته، في تعالٍ وتكبر وترفع، وفي دعوى عريضة: أن ما أتاه الله إياه إنما كان من العلم الذي عنده..

إنه تكبر في الشكل والمظهر وتكبر في القول والدعوى. فخسف الله به وبداره الأرض.

وتقرر الآية الكريمة: أن الدار الآخرة - أي الجنة - جعلها الله لقوم تتوفر فيهم صفتان:

- ﴿لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ﴾ فلا يتكبرون في الدنيا على خلق الله، ولا يرون لأنفسهم فضيلة على غيرهم،



فالكل عباد الله، فهم المتواضعون.. فقد جاء في الصحيح قوله ﷺ: (إنه أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغي أحد على أحد).

وقوله: ﴿لَا يُرِيدُونَ﴾ توحى بأن خاطر الاستعلاء لم يقم في نفوسهم، ولم يدر في خلدهم الاعتزاز بذواتهم وبأشخاصهم، وبالتالي فإن «الإرادة» لم تحصل منهم.

- ﴿وَلَا فَسَادًا﴾ والفساد كلمة عامة يدخل تحتها كل شر، فالمعاصي من الفساد، وأخذ مال الغير بغير حق من الفساد.. فهؤلاء الذين تتحدث عنهم الآية هم الذين يسعون في الخير ويأمرون بالمعروف ويقومون به..

- ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ الذين يأتمرون بأوامر الله وينتهون عما نهى.

والآية الكريمة تحذر الإنسان المؤمن من مقاربة العلو في الأرض والفساد فإن الدار الآخرة والجنة لن تكون مقراً لمن كانت هذه صفاته وأعماله.

وفي الآية الكريمة بشارة لعامة المسلمين، فهم بل معظمهم لا يريدون العلو في الأرض، ولا يريدون الفساد، ولذلك ستكون العاقبة لهم إن شاء الله تعالى.



إنه قلب واحد



قال الله تعالى:

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴾ [الأحزاب: ٤].
«إنه قلب واحد.

فلا بد له من منهج واحد يسير عليه.

ولا بد له من تصور كلي واحد للحياة وللوجود يستمد منه.

ولا بد له من ميزان واحد يزن به القيم، ويقوم به الأحداث والأشياء، وإلا تمزق وتفرق ونافق والتوى، ولم يستقم على اتجاه.

ولا يملك الإنسان أن يستمد آدابه وأخلاقه من معين.
ويستمد شرائعه وقوانينه من معين آخر.

ويستمد أوضاعه الاجتماعية أو الاقتصادية من معين
ثالث.



ويستمد فنونه وتصوراته من معين رابع.

فهذا التخليط لا يكوّن إنساناً له قلب، إنما يكون مزقاً وأشلاءً ليس لها قوام.

وصاحب العقيدة لا يملك أن تكون له عقيدة حقاً، ثم يتجرد من مقتضياتها وقيمها الخاصة في موقف واحد من مواقف حياته كلها، صغيراً كان هذا الوقف أم كبيراً.

لا يملك أن يقول كلمة، أو يتحرك حركة، أو ينوي نية، أو يتصور تصوراً، غير محكوم في هذا كله بعقيدته - إن كانت هذه العقيدة حقيقة واقعة في كيانه - لأن الله لم يجعل له سوى قلب واحد، يخضع لناموس واحد، ويستمد من تصور واحد، ويزن بميزان واحد.

لا يملك صاحب العقيدة أن يقول عن فعل فعله: فعلت كذا بصفتي الشخصية، وفعلت كذا بصفتي الإسلامية، كما يقول رجال السياسة، أو رجال الشركات، أو رجال الجمعيات الاجتماعية أو العلمية وما إليها في هذه الأيام.

إنه شخص واحد له قلب واحد، تعمره عقيدة واحدة، وله تصور واحد للحياة، وميزان واحد للقيم، وتصوره المستمد من عقيدته متلبس بكل ما يصدر عنه، في كل حالة من حالاته على السواء.



وبهذا القلب الواحد يعيش فرداً.

ويعيش في الأسرة.

ويعيش في الجماعة.

ويعيش في الدولة.

ويعيش في العالم.

ويعيش سرّاً وعلانية.

ويعيش عاملاً وصاحب عمل.

ويعيش حاكماً ومحكوماً.

ويعيش في السراء والضراء.

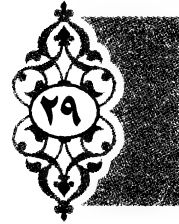
فلا تتبدل موازينه، ولا تتبدل قيمه، ولا تتبدل تصوراته

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴾.

ومن ثم فهو منهج واحد، وطريق واحد، ووحي واحد،
واتجاه واحد، وهو استسلام لله وحده، فالقلب الواحد لا
يعبد إلَهِين، ولا يخدم سيّدين، ولا ينهج نهجين ولا يتجه
اتجاهين، وما يفعل شيئاً من هذا إلا أن يتمزق ويتفرق
ويتحول إلى أشلاء وركام! ^(١).



الأسوة الحسنة



قال الله تعالى:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

قال ابن كثير: «هذه الآية الكريمة أصل كبير في التأسّي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله».

والأسوة: هو القدوة.

والتأسي به ﷺ يقتضي: «اتباع الأقوال والأفعال في كل صغيرة وكبيرة في العادات وفي العبادات، في الفروض والواجبات والمباحات، في العمل، وفي طريقة أدائه، في القول، وبالطريقة التي أدّى بها هذا القول، إنه التأسّي بالمضمون وبالشكل».

وقد فهم الصحابة رضوان الله عليهم هذا المعنى من الآية الكريمة، فنقلوا لنا كل ما شاهدوه أو سمعوه منه ﷺ، نقلوا الطريقة



والأسلوب.. طريقة الأكل والشرب والنوم والكلام والمشي.. وكل شيء حتى ما كان من خاصة الإنسان في شؤون بيته. نقل الصحابة كل هذا وطبقوه تأسيًا واقتداءً^(١).

وهذا التأسي يحتاج إلى معرفة بسيرته ﷺ وبسنته، ولهذا كان على من أراد ذلك أن يدرس السيرة والسنة ليكون على علم بما يأتي وما يدع.

قال الإمام ابن القيم: «يجب على كل من نصح نفسه، وأحب نجاتها وسعادتها، أن يعرف من هديه وسيرته وشأنه ﷺ ما يخرج به عن الجاهلين به، ويدخل في عداد أتباعه وشيعته وحزبه»^(٢).

وقال: «على المسلم - أن يطالع سيرته ﷺ ومبادئه أمره، وكيفية نزول الوحي عليه، ويعرف صفاته وأخلاقه، وآدابه في حركاته وسكونه، ويقظته ومنامه، وعبادته ومعاشرته لأهله وأصحابه، حتى يصير كأنه معه من بعض أصحابه»^(٣).

(١) عن كتاب السيرة النبوية تربية أمة وبناء دولة، للكاتب، نشره المكتب الإسلامي.

(٢) زاد المعاد (٦٩/١).

(٣) مدارج السالكين (٢٦٨/٣).



وصدق ابن القيم، فإن الذين عاشوا مع سيرته وسُنَّته غدوا وكأنهم بعض أصحابه.

إن دراسة سيرته ﷺ ليست نافلة من النوافل، وإنما ضرورة من الضروريات لما يترتب عليها من التأسي به ﷺ.

ونحن بحاجة إلى العودة إلى الآية الكريمة نستطلع تَمَتُّها.

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ﴾

بدأ الخطاب عاماً في قوله تعالى: ﴿لَكُمْ﴾ ثم قال: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ﴾ وهذا نوع من التخصيص ولعله المعنى المراد والله أعلم.

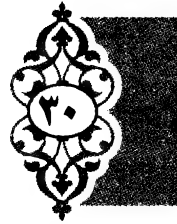
أيها المسلمون، جعل الله تعالى الرسول ﷺ أسوة وقدوة، والذين يوفقههم الله للتأسي به، هم الذين يرجون ثواب الله ورضاه، وهم الذين يرجون النجاة في اليوم الآخر فيكونون من أهل الجنة، وهم الذين يذكرون الله كثيراً بلسانهم ويذكرون الله كثيراً بقلوبهم.. وهكذا كان رسول الله ﷺ.



- وهناك ترابط وثيق شديد بين جانبي الآية الكريمة.
- فالذين يتأسون به ﷺ هم الذين يرجون الله واليوم الآخر وذكروا الله كثيراً.
- وقد يكون المعنى: أن الذين يتأسون به ﷺ يجعلهم التأسى يرجون الله واليوم الآخر وذكرون الله كثيراً.
- وتحمل الآية الكريمة رسالة - وأي رسالة - التمسك بهديه ﷺ في كل الشؤون، والتطبيق لما جاء به.
- والتأسى به ﷺ لا ينقضي في يوم، أو واقعة، أو شهر.. إنما هو سلوك مستمر طول الحياة.



التوبة



قال الله تعالى:

﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ، مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [الزمر: ٥٣، ٥٤].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: «هذه الآية الكريمة دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة، وإخبار بأن الله تبارك وتعالى يغفر الذنوب جميعاً لمن تاب منها ورجع عنها، وإن كانت مهما كانت، وإن كثرت وكانت مثل زبد البحر.

قال: ولا يصح حمل هذه على غير توبة، لأن الشرك لا يغفر لمن لم يتب».

والاستغفار من الذنوب شرط لحصول التوبة، فلا بد لكل مذنّب من التوبة والاستغفار حتى يدخل في عداد من تشملهم هذه الآية، وذلك بدلالة:

- قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ ففعل يغفر يعني: أن هناك مستغفر.

- وقوله: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ﴾ ومعنى الإنابة: الرجوع. وهو: الرجوع عن الذنوب والابتعاد عنها والعودة إلى الاستقامة، ولا يكون ذلك إلا بالتوبة والاستغفار.

ونقل ابن كثير عن ابن مسعود رضي الله عنه قوله:

«إِنَّ أَعْظَمَ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾.

وإن أجمع آية في القرآن بخير وشر: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَنِ﴾.

وإن أكثر آية في القرآن فرحاً: ﴿قُلْ يَعْبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾.

وإن أشد آية في كتاب الله تفويضاً: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا • وَنَرْزُقْهُ مِمَّنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾.

وبعد: فإن هذه الآية الكريمة التي فتحت الأبواب واسعة لكل من أراد الرجوع إلى الله والاستسلام له، وتقرر قبول توبته وهذا كرم لا يدانيه كرم، ولا يمكن أن يصدر إلا عن الله، وهو الأمر الذي يتناسب مع عظمته تعالى.



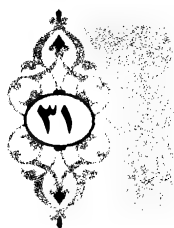
ويتناسب مع أسمائه الحسنی، فهو - سبحانه - الرحمن الرحيم، وهو التواب والغفار.

«إنها الرحمة الواسعة التي تسع كل معصية، كائنة ما كانت، وإنها الدعوة إلى الأوبة، دعوة العصاة المسرفين الشاردين المبعدين في تيه الضلال.. دعوتهم إلى الأمل والرجاء والثقة بعفو الله... إن الله رحيم بعباده».

فلله الحمد على رحمته عباده.



الإيمان والاستقامة



قال الله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ • نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ • نَزَّلْنَا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠ - ٣٢].

قال ابن كثير: «﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ أي اخلصوا العمل لله، وعملوا بطاعة الله على ما شرع الله.

وقال ابن عباس استقاموا على أداء الفرائض.

وكان الحسن البصري يقول: اللهم أنت ربنا فارزقنا الاستقامة».



فالأية الكريمة تنصُّ على أمرين: الإيمان بالله تعالى والاستقامة.

والاستقامة: هي السير على الطريق المستقيم الذي جاء ذكره في سورة الفاتحة، والذي يعني الالتزام بما أمر الله والابتعاد عما نهى.

والاستقامة: مفهوم معناها من لفظها ولا تحتاج إلى تفسير مطول.

ففي حديث الإمام مسلم: عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال: قلت: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولاً، لا أسأل عنه أحداً بعدك قال: (قل آمنت بالله فاستقم).

هكذا أجابه ﷺ بهاتين الكلمتين بغير شرح أو إيضاح لوضوح معناهما.

ويترتب - كما جاء في الآيات الكريمة - على الالتزام بالإيمان والاستقامة بشاراة الملائكة لهم بما يسرهم.

- البشارة بالجنة الموعودة.

- ولاية الملائكة لهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

- وأن لهم في الجنة ما يشتهون وما يطلبون.

- وأن هذا تكريم من الله تعالى لهم.



وما أعظم هذه الأمور أن تكون مقابل ما قاموا به من الإيمان والاستقامة.

ولكن متى موعد هذه البشارة؟

وقد نقل الإمام ابن كثير في ذلك أقوالاً:

- قال مجاهد والسدي وزيد بن أسلم: تنزل عليهم الملائكة عند الموت قائلين: أن لا تخافوا، أي: مما تقدمون عليه من عمل الآخرة، ولا تحزنوا على ما خلفتموه من أمر الدنيا من ولد وأهل ومال أو دين فإننا نخلفكم فيه، وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون، فيبشرونهم بذهاب الشر وحصول الخير.

- وقيل: إن الملائكة تنزل عليهم يوم خروجهم من قبورهم.

- وقال زيد بن أسلم: يبشرونه عند موته وفي قبره، وحين يبعث.

قال ابن كثير: وهذا القول - الأخير - يجمع الأقوال كلها وهو حسن جداً وهو الواقع.

وسياق الآيات يفهم منه أن هذه البشارة تكون في الحياة لا بعد الموت، بدلالة قوله: ﴿ نَحْنُ أُولِيَائُكُمْ فِي



الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿ فكيف يكون الحديث عن الحياة الدنيا عند
خروجهم من قبورهم.

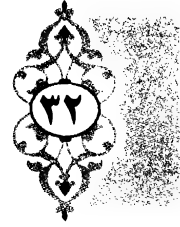
فيغلب على الظن أن القول الأول هو الراجح.

والآيات الكريمة بما تحمله من بشارة عظيمة لا يَغْدِلُهَا
شيء آخر، ترشد إلى أن ذلك هو جزاء لمن ﴿قَالُوا رَبُّنَا
اللَّهُ ثُمَّ اسْتَغْتَمُوا﴾.

ونقول كما قال الحسن البصري: اللهم أنت ربنا فارزقنا
الاستقامة.



نعمة الإيمان



قال الله تعالى:

﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِلَّا سَلَمَكُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ يَمُنُ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧].

جاء في سبب نزول هذه الآية: أن بني أسد جاؤوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، أسلمنا وقاتلتك العرب ولم نقاتلك، فنزلت.

وبغض النظر عن سبب النزول فإن الآية الكريمة تقرر حقيقة كبيرة قد يغفل عنها كثير من الناس.

«إن الإيمان هو أكبر المنن التي ينعم الله بها على عبد من عباده، فليس هناك من مئة تعدله أو تقاربه من آلاء الرزق والصحة والحياة والمتاع».

ما قيمة الإنسان بغير عقيدة وبغير إيمان؟!

ما قيمة الإنسان بغير أهداف كبرى وغايات سامية

يسعى لتحقيقها؟!



ما قيمة الإنسان عندما تكون حياته كلها أكل وشرب ونوم، ثم يتكرر ذلك كل يوم؟!

إنه عندما يفقد هذه القضايا يفقد إنسانيته.. ويفقد كرامته التي منحه الله إياها ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ وتصبح حياته كحياة الحيوان الذي لا هدف له إلا اشباع غريزته في الأكل والشرب والجنس.

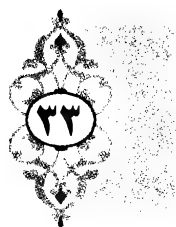
﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ كما قال ﷺ؛ لأن الأنعام عاشت بغريزتها إذ لم تُمنح العقل، ولكن هذا الإنسان ترك عقله وعاش بغريزته، فكانت الأنعام أعلى منه قدراً.

إن الله تعالى خلق الجن والإنس لعبادته.. وحينما ينحرف إنسان عن فطرته ويشرك بالله أو يكفر به، فإنه يضيع غاية وجوده، فاستحق أن يضيع، ويفقد أكبر نعمة وضعها الله بين يديه وهي «الإيمان»... إنهم نسوا الله فنسيهم.

إن من واجب كل مؤمن أن يلهج لسانه باستمرار ثناء على الله وحمداً له على نعمة الإيمان التي تفضل الله بها عليه، وجعله من أهلها، ومنّ عليه بها.



الفرار إلى الله



قال الله تعالى:

﴿ فَفَرُّوْا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الذاريات: ٥٠].

الفرار: هو الهروب.

والفرار يكون - طبيعة - عند وجود شيء مخيف.

وفي الفرار: لا يحدد الهارب اتجاهه لشدة ما أصابه من خوف، بل يسلك أي مسلك أو طريق يواجهه ويكون أقرب إليه.

وفعل الفرار عادة يعدى بالحرف (من) كما ورد في الحديث الشريف (وفرَّ من المجذوم فرارك من الأسد) وليس بـ (إلى).

وفي الآية الكريمة: ﴿ فَفَرُّوْا إِلَى اللَّهِ ﴾.

فالفرار هنا إلى الله حيث الأمن الطمأنينة.

والفرار هنا إلى اتجاه واحد لا غير، إلى الله تعالى.



فإذا أصاب الإنسان خوف أو شدة فليفر إلى الله تعالى
وليلجأ إليه سبحانه.

إن استعمال الفرار بهذا المعنى أمر عجيب وفيه من
البلاغة ما لا يمكن لفعل آخر أن يقوم مقامه.

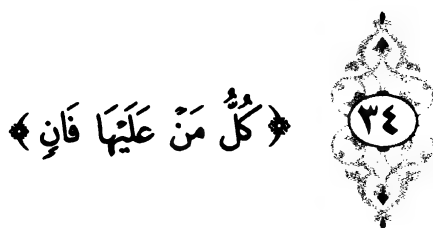
إنه اللجوء إلى الله تعالى بسرعة الهارب الذي يريد
اقتناص الوقت ليبقي على حياته.

قال ابن عباس: فروا منه إليه واعملوا بطاعته.

وقال غيره: اهربوا من عذاب الله إلى ثوابه بالإيمان
والطاعة.

وإن المسلم ليقف أمام الآية طويلاً.. فالإنذار في نهاية
الآية من الله والفرار إليه، فهو إنذار أراد به الخير لهم، فإنه
يحذرهم ويوجههم إلى حيث ينبغي أن يلجؤوا ويجهتدوا،
إنها رحمة الله بعبادته، فمع الإنذار توجيه للنجاة.

إن الرسالة التي تحملها الآية هي توجيه المسلم إلى
سرعة اللجوء إليه تعالى والاستعانة به كسرعة الخائف
الملهوف إلى مأمنه.



قال الله تعالى:

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ • وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾

[الرحمن: ٢٦، ٢٧].

«في ظل هذا النص القرآني تخفت الأنفاس، وتخضع الأصوات، وتسكن الجوارح... وظلُّ الفناء يشمل كل حي، ويطوي كل حركة، ويغمر آفاق السماوات والأرض.. وجلال الوجه الكريم الباقي يظلل النفوس والجوارح، والزمان والمكان، ويغمر الوجود كله بالجلال والوقار.

ولا يملك التعبير البشري أن يصور الموقف، ولا يملك أن يزيد شيئاً على النص القرآني، الذي يسكب في الجوانح السكون الخاشع، والجلال الغامر، والصمت الرهيب، والذي يرسم مشهد الفناء الخاوي، وسكون الموت المخيم بلا حركة»^(١).

(١) الظلال.



قال ابن كثير: «يخبر الله تعالى أن جميع أهل الأرض سيذهبون ويموتون أجمعون، وكذلك أهل السماء إلا من شاء الله، ولا يبقى أحد سوى وجهه الكريم».

إن العيش في ظلال هذه الآية، يجعل القلب في خشوع، والجسم في رعدة والفكر يتصور المشهد الرهيب.. ويبقى الواحد الأحد ذو الجلال والإكرام ﷻ.



القسم العظيم

٣٥

قال الله تعالى:

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ • وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّو تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ • إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ • فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ • لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ • تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الواقعة: ٧٥ - ٨٠].

إنه قسم من الله تعالى على أن ما جاء به رسول الله ﷺ هو الكتاب المنزل من اللوح المحفوظ، حيث لا يمسه إلا المطهرون، إنه القرآن الكريم الذي هو تنزيل من رب العالمين.

إنه خطاب موجه إلى المكذبين بهذا القرآن.

«والمخاطبون يومذاك لم يكونوا يعرفون عن مواقع النجوم إلا القليل، الذي يدركونه بعيونهم المجردة، ومن ثم قال لهم: ﴿ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّو تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ فأما نحن اليوم فندرك من عظمة هذا القسم المتعلقة بالمقسم به،



نصيباً أكبر بكثير مما كانوا يعلمون، وإن كنا نحن أيضاً لا نعلم إلا القليل من عظمة مواقع النجوم.

وهذا القليل الذي وصلنا إليه بمراصدنا الصغيرة، المحدودة المناظير، يقول لنا: إن مجموعة واحدة من مجموعات النجوم التي لا تحصى في الفضاء الهائل الذي لا نعرف له حدوداً... مجموعة واحدة - هي المجرة التي تنسب إليها أسرتنا الشمسية - تبلغ ألف مليون نجم.

ويقول الفلكيون: إن هذه النجوم والكواكب التي تزيد على عدة بلايين نجم، ما يمكن رؤيته بالعين المجردة، وما لا يرى إلا بالمجاهر والأجهزة، وما يمكن أن تحس به الأجهزة دون أن تراه، هذه كلها تسبح في الفلك الغامض، ولا يوجد أي احتمال أن يقترب مجال مغناطيسي لنجم من مجال نجم آخر، أو يصطدم بكوكب آخر، إلا كما يحتمل تصادم مركب في البحر الأبيض المتوسط بآخر في المحيط الهادي، يسيران في اتجاه واحد وبسرعة واحدة، وهو احتمال بعيد، وبعيد جداً، إن لم يكن مستحيلاً.

هذا طرف من عظمة مواقع النجوم، وهو أكبر كثيراً جداً مما كان علمه المخاطبون بالقرآن أول مرة^(١).

(١) الظلال.

إن هذا القسم - وحده - لدليل على أن هذا القرآن من عند الله، ولا يحتاج ذلك إلى دليل آخر.

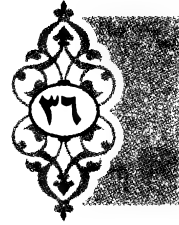
إنه قسم عظيم، والمقسم عليه عظيم، والمقسم بِجَلَالِ اللَّهِ عليّ عظيم.

﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ * تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾.

وصدق الله رب العالمين.



مثل الحياة الدنيا



قال الله تعالى:

﴿ اَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوٌّ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ
بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ
نَبَاطُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ
عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا
مَتْنَعُ الْغُرُورِ ﴾ [الحديد: ٢٠].

هذه الآية الكريمة تبين حقيقة الحياة الدنيا وتبدأ
بكلمة: ﴿ اَعْلَمُوا ﴾ فهي تلفت النظر وتنبه المخاطبين إلى
الإصغاء ليعلموا ما يلقي إليهم.

فالحياة الدنيا لعب ولهو.

ثم تضرب المثل لذلك.

ثم تقرر حقيقة الآخرة وما فيها.

«والحياة الدنيا حين تقاس بمقاييسها هي، وتوزن بموازينها، تبدو في العين وفي الحس أمراً عظيماً هائلاً، ولكنها حين تقاس بمقاييس الوجود، وتوزن بميزان الآخرة تبدو شيئاً زهيداً، وهي هنا في هذا التصوير تبدو لعبة أطفال بالقياس إلى ما في الآخرة من جدٍ تنتهي إليه مصائر أهلها بعد لعبة الحياة.

لعب، ولهو، وزينة، وتفاخر، وتكاثر.

هذه هي الحقيقة وراء كل ما يبدو فيها من جدٍ حافل، واهتمام شاغل..

ثم يضرب القرآن مثلاً على طريقته المبدعة ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾.

والكفار هنا هم الزراع، والزراع يكفر أي يحجب الحبة ويغطيها في التراب.

فالزراع يزرع الحب، ويعجب بنباته بعد نزول الغيث.. ثم يهيج هذا الزرع فيصفر لونه بعد أن كان أخضر نضراً، ثم يكون بعد ذلك حطاماً يابساً متكسراً.

هكذا الحياة الدنيا، تكون أولاً شابة، ثم تكتهل، ثم تكون عجوزاً شوهاء.



أما الحياة الآخرة فلها شأن آخر، شأن يستحق أن يحسب حسابه، ويستعد له.. فهي لا تنتهي في لمحة كما تنتهي الحياة الدنيا، وهي لا تنتهي إلى حطام كالنبات الذي بلغ أجله، ولكنها ﴿عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾.

وأما الحياة الدنيا فهي متاع الغرور.

وهكذا فالآية الكريمة تضع بين أيدينا حقيقتين:

- حقيقة الحياة الدنيا.. وأنها متاع الغرور.

- وحقيقة الحياة الآخرة وأنها ﴿عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾.

وبعد هذا البيان يأتي التوجيه القرآني الكريم ليقول:

﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١].



أثر الإيمان بالقدر

٣٧

قال الله تعالى:

﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [الحديد: ٢٢ - ٢٣].

المصيبة: هي واحدة المصائب، وهي الأمر المحزن أو المزعج.

والمصيبة في الأرض؛ كالجذب والكوارث الطبيعية كالزلازل والفيضانات وما تخلفه وراءها.

والمصائب في الأنفس؛ كالمرض والموت وفقد الأموال..

يخبر الله تعالى: أنه ما من مصيبة تقع في الأرض أو في الأنفس، إلا وهي مكتوبة في اللوح المحفوظ قبل أن يخلق الأنفس.

وما أخبرنا الله تعالى بهذا إلا رحمة بنا وفي سبيل
مصلحتنا، وذلك واضح في قوله: ﴿لِكَيْلَا﴾ فهذا تعليل
يوضح الفائدة لنا من هذا الإخبار.

وإذا استقرت هذه المعلومة في وعي الإنسان وعلم أن
كل ما يقع في هذه الحياة من مصائب ونعم قد سبق
تقديرها، فإنه يستفيد من ذلك في أمرين:

الأول: إذا وقعت به مصيبة أو فاته شيء من خير كان
يسعى لتحصيله، لم يحزن لأنه يعلم أنه لو قدر له ذلك لم
يفته، ولأنه لو قدر له شيء لكان.

الثاني: أنه إذا جاءته نعمة من نعم الدنيا، علم أنها
مقدّرة له، ولذلك لم يفرح بها الفرح الذي يوصله إلى
البطر والاختيال والفخر، وإنما وصلت إليه هذه النعمة
بتقدير الله تعالى.

إن عدم التأسف على ما فات، وعدم الفرح المبطر
بالنعم، يجعل الإنسان في صحة نفسية وتوازن، وهذا أمر
مفيد له في ذات نفسه، وفي تعامله مع من هم حوله.

قال عكرمة: ليس أحد إلا وهو يفرح ويحزن، ولكن
اجعلوا الفرح شكراً، والحزن صبراً.

محاسبة النفس

٣٨

قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ
 لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ • وَلَا تَكُونُوا
 كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾
 [الحشر: ١٨ - ١٩].

هذه الآية الكريمة أصل في محاسبة النفس.

فقوله: ﴿مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾، غدٍ: هو اليوم الذي يأتي بعد
 اليوم الذي أنت فيه، والمراد هنا: يوم القيامة، وإنما عبّر
 عنه بذلك للنظر إلى قربته، وأنه ليس ببعيد.

وقوله: ﴿وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ﴾، أي: تنظر فيما قدّمت وادّخرت
 من الأعمال، فإن كانت صالحة حمدت الله تعالى، وإن كانت
 غير ذلك بادرت إلى التوبة والاستغفار ورد الحقوق إلى
 أصحابها.



وهذه المحاسبة أمر مهم، لأنها الميزان الذي يصحح المسار، وإنما يداوم عليها من كُتبت له السعادة.

وقد اعتنى بهذا الأمر السلف الصالح ابتداءً من الصحابة ومن أتى بعدهم:

- قال عمر رضي الله عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا؛ فإنه أهون عليكم في الحساب غداً أن تحاسبوا أنفسكم اليوم، تزينوا للعرض الأكبر ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ النَّعْصُورُ وَلَا تُخْفَىٰ مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨].

- وكتب إلى بعض عمّاله فقال: أنْ حاسب نفسك قبل حساب الشدّة، فإنه مَنْ حاسب نفسه في الرخاء قبل حساب الشدّة، عاد مرجعه إلى الرضا والغبطة، ومن ألهمته حياته وشغله مهواه؛ عاد مرجعه إلى الندامة والحسرة.

- وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنه: ما انتفعت بكلام أحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم كانتفاعي بكتاب كتب به إليّ عليّ بن أبي طالب، فإنه كتب إليّ:

أما بعد: فإنّ المرء يسؤوه فوت ما لم يكن ليدركه، ويسرّه درك ما لم يكن ليفوته، فليكن سرورك بما نلت من أمر آخرتك، وليكن أسفك على ما فاتك منها، وما نلت

من دنياك فلا تكثرنَّ به فرحاً، وما فاتك منها فلا تأس عليه حزناً، وليكن همّك فيما بعد الموت.

• وقال الحسن البصري: لا يزال العبد بخير ما كان له واعظ من نفسه، وكانت المحاسبة من همته.

وإنما المؤمن قوَّام على نفسه، يحاسب نفسه لله، وإنما خفَّ الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شقَّ الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر على غير محاسبة.

• وقال الحارث المحاسبي: اجعل المراجعة شغلاً لازماً، وكن وقافاً، كما قال الأول: المؤمن وقاف، وليس كحاطب ليل.

قف وطالع زوايا ضميرك بعين حديدة النظر، نافذة البصر.

فإذا رأيت أمراً محموداً، فاحمد الله، وامض، وإذا رأيت مكروهاً، داركته بحسن المراجعة، واستقصيت فيه.

• وقال ابن القيم: إذا كان العبد مسؤولاً ومحاسباً على كل شيء، على سمعه وبصره وقلبه، كما قال تعالى:



﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾
[الإسراء: ٣٦]، فحقيقٌ به أن يحاسب نفسه قبل أن يناقش
الحساب.

إِنَّ النظر فيما يقدّم الإنسان لغده، أخذ من تفكير
السلف مساحة كبيرة، وكان عامة القوم يحاسب
الإنسان منهم نفسه على ما صدر منه في يومه قبل
نومه، فإن وجد خيراً حمد الله، وإن وجد غير ذلك
استغفر الله، وإن وجد حقاً للناس عزم على إرجاعه
لأهله في اليوم التالي.. وعزم على الاستقامة في اليوم
التالي إن كُتبت له الحياة.

وكان بعضهم يجري هذه المحاسبة بعد صلاة
الفجر.

- قال سفيان الثوري: انظر - يا أخي - أن يكون أمرك ما
بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس: التفكير في يومك
الذي مضى، فما كان من طاعة الله فاستقم عليه، وما
كان من معصية فانزع عنها، ولا تُعُدّ فيها يديك، فإنك
لا تدري أتستكمل يومك أم لا، وإن التوبة مبسوطة،
وترك الذنب أيسر عليك من طلب التوبة، والتوبة
النصوحة هي الندامة لا رجعة فيها.



تلك أقوال بعض الأئمة في أمر حساب النفس، بناءً على ما فهموه من الآية الكريمة.

وفي الآية ثلاثة أوامر:

الأول: الأمر بتقوى الله تعالى، وهو نصّ عام.

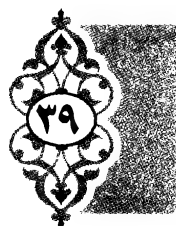
والثاني: الأمر بمحاسبة النفس، وهو النظر في الأعمال التي قدّمها لنفسه، وهو أمرٌ خاص بعد الأمر العام.

والثالث: الأمر بتقوى الله، وهو تأكيد للأمر الأول، وربما كان تأكيداً للأمر الثاني بمعنى الإخلاص في محاسبة النفس.

والآية الثانية مشعرة بسياقها أنّ مَنْ لم يعمل بالآية الأولى يكون من الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم فكانوا من الفاسقين.

وهو تأكيد آخر ضمنني دافع إلى الالتزام بالعمل بما ورد في الآية الأولى مما يشعر بمكانة هذا الأمر الذي يعني المراقبة الدائمة للنفس وتقويم سلوكها.





خطر الانشغال بالأموال

قال الله تعالى:

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ
عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾
[المنافقون: ٩].

قال تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ﴾ [الكهف: ٤٦]،
والزينة تشغل الإنسان، ولذلك فهي ملهامة ومشغلة إذا لم
يكن قلب المسلم متيقظاً.

والآية تنهى المؤمنين أن تكون أموالهم وأولادهم
مستغرقة كل أوقاتهم فلا يبقى الوقت الذي يذكرون
الله فيه.

على أن المسلم المنضبط مع الخطوط العريضة لهذا
الدين لا يمكن أن يصل إلى هذه الحالة فالصلوات الخمس
من ذكر الله.



والمسلم الذي يشعر بمراقبة الله تعالى في أعماله
فابتعد فيها عما حرم الله لن يصل إلى هذه الحالة.

والمسلم الذي بنى بيته على الإسلام وربى أبناءه
عليه.. لن يصل إلى هذه الحالة.

ولكنه عندما يشغله تنمية أمواله بحجة أنه يصنع
مستقبلاً لأبنائه، فإنّ الشيطان سينتقل به شيئاً فشيئاً حتى
يلهيته عن ذكر الله.

فربما أغراه بتأخير الصلاة لإتمام صفقة تجارية،
بحجة أنّ الوقت متّسع، ثم ينتقل به مرحلة أخرى في
جمع وقتين معاً كالظهر والعصر.. إلى يصل إلى
التهاون بالصلاة.. وهكذا حتى يلهيه بما يشغله عن
ذكر الله.

ومن شغلته أمواله وأولاده عن ذكر الله فهي الخسارة
الكبرى.. التي يحذّرنا الله تعالى أن نقع فيها.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ
الْخَاسِرُونَ﴾ أي: من ألهاه ماله وأولاده عن ذكر
الله فهو الخاسر، الخسارة التي لا تعوّض، كما



قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ
يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخَسِرَانُ الْمُبِينُ ﴾ [الزمر: ١٥].



أَدَقُّ الْحَسَابِ



قال الله تعالى:

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ • وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

وهكذا فـ «الذرة» هي وحدة القياس الذي سيجري به الحساب يوم القيامة، وكان المفسرون القدامى يقولون: إنها الهباءة التي ترى في ضوء الشمس عندما يدخل الغرفة عبر نافذتها.. كان ذلك أصغر ما يتصورون من لفظ الذرة.

ونعلم اليوم أنَّ الذرة شيء محدد يحمل هذا الاسم، وأنه أصغر بكثير من تلك الهباءة التي ترى في ضوء الشمس، فالهباءة ترى بالعين المجردة، أما الذرة فلا ترى أبداً حتى بأعظم المجاهر بالمعامل، إنما هي «رؤيا» في ضمير العلماء، لم يسبق لواحد منهم أن رآها بعينه ولا بمجهره، وكل ما رآه هو آثارها.



فهذه «الذرة» في ثقلها، من خير أو شر، ستحضر يوم القيامة ويرأها صاحبها ويجد جزاءها.

فينبغي أن لا يحقر الإنسان شيئاً من عمله، خيراً كان أو شراً، ولا يقول هذه صغيرة لا حساب لها ولا وزن، والمسلم يرتعش وجدانه أمام كل عمل من أعماله ارتعاشة ذلك الميزان الدقيق الذي ترجح به الذرة أو تشيل.

إن هذا الميزان لم يوجد له نظير أو شبيه بعد في الأرض.. إلا في قلب المؤمن.

تلك هي «الذرة» التي سيكون الحساب يوم القيامة بموجبها.

وقد فهم الصحابة ﷺ مقياس هذه الوحدة، وعاملوا أنفسهم على أساسها.

جاء في مسند الإمام أحمد عن صعصعة بن معاوية - عم الفرزدق - أنه أتى النبي ﷺ فقرأ عليه: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ قال: حسبي، لا أبالي أن لا أسمع غيرها.

لقد كانت هذه الآية الكريمة لدى هذا الصحابي الكريم كافية ليتخذها ميزاناً طول حياته الدنيا يزن بها أعماله.

وجاء في «الموطأ» للإمام مالك، عن عائشة رضي الله عنها، أن مسكيناً وقف على بابها، وبين يديها عنب، فقالت لإنسان كان عندها: خذ حبة فأعطه إياها، فجعل ينظر إليها، ويعجب من قولها، فقالت عائشة: أتعجب من قلبي؟ فكم ترى في هذه الحبة من مثال ذرة.

وفي صحيح البخاري قوله ﷺ لعدي بن حاتم: (اتقوا النار ولو بشق تمرة).

وفي المسند وعند ابن ماجه والدارمي: عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: (يا عائشة، إياك ومحقرات الذنوب فإن لها من الله وَعِجْلٌ طالباً).

إن أعمال الإنسان محصاة عليه صغيرها وكبيرها، خيرها وشرها، في كتاب ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

إن الرسالة التي تحملها هذه الآية تقتضي من المسلم الحريص على نجاة نفسه - يوم لا يشفع مال ولا بنون - أن



يراقب نفسه فيما يصدر عنه من خير وشر، أما الخير
فليحمد الله عليه، وأما الشر فليتبع السيئة الحسنة تمحها،
وليأت الله بقلب سليم.



خاتمة

وبعد:

هذا ما يَسَّرَ الله جمعه في هذه الرسالة المختصرة،
وكانت الغاية منها أمران:

الأول: التذكير بكيفية تعامل السلف - رحمهم الله - مع
القرآن الكريم، تلاوة واستماعاً، وتدبراً، وعملاً بما جاء به،
وأدباً معه.

الثاني: ذكر نماذج من التدبر لآيات كريمة، باعتبارها
رسائل أنزلت للعمل بها.

وإن أهم ما ينبغي التحذير منه، هو هجر القرآن الكريم
بأي وجه من الوجوه التي سبق الحديث عنها.

والله المرجو أن ينفع بهذا العمل، ويجعله خالصاً له.



إنه جواد كريم، ونعم المسؤول. وصلى الله على سيدنا
محمد وعلى آله وصحبه وسلم.
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



الفهرس

المقدمة.....	٥
ترجمة الإمام الحسن البصري <small>عليه السلام</small>	١١

الفصل الأول

توثيق الصلة بالقرآن الكريم

تمهيد.....	٢١
(١) فضل تلاوة القرآن الكريم.....	٢٣
(٢) كيفية القراءة.....	٢٥
(٣) تحسين الصوت بالقراءة.....	٢٧
(٤) مقدار القراءة.....	٢٩
(٥) التدبُّر والعمل.....	٣٣
(٦) التلاوة المثمرة.....	٣٨
(٧) التحذير من هجر القرآن.....	٤١
(٨) أدب استماع القرآن.....	٤٤



- (٩) الأدب مع القرآن..... ٤٧
- (١٠) الخلاصة..... ٥٢

الفصل الثاني

رسائل قرآنية

- (١) تصنيف الناس..... ٥٧
- (٢) الإنفاق في سبيل الله..... ٦٢
- (٣) آخر آية نزلت..... ٦٥
- (٤) محبة الله تعالى..... ٦٩
- (٥) حُسْنُ الخاتمة..... ٧٢
- (٦) معالم التقوى..... ٧٦
- (٧) مهمته ﷺ في التعليم والتزكية..... ٨٢
- (٨) سبيل النجاة من النار..... ٨٥
- (٩) إقامة العدل..... ٩٠
- (١٠) كمال الدين..... ٩٢
- (١١) إِنَّا معكما مقاتلون..... ٩٨
- (١٢) النهي عن المنكر..... ١٠٠
- (١٣) العلم الشامل..... ١٠٤
- (١٤) ذلكم وصاكم به..... ١٠٨



- (١٥) المؤمنون حقاً..... ١١٢
- (١٦) دار السلام..... ١١٦
- (١٧) الرقابة الدائمة..... ١١٩
- (١٨) الاطمئنان بالذكر..... ١٢٢
- (١٩) جوامع الخير..... ١٢٥
- (٢٠) الهداية إلى الاستقامة..... ١٢٨
- (٢١) التسبيح..... ١٣٢
- (٢٢) زلزلة الساعة..... ١٣٥
- (٢٣) ضعف الطالب والمطلوب..... ١٣٨
- (٢٤) الذين يرثون الفردوس..... ١٤٣
- (٢٥) القلوب الوجلة..... ١٤٦
- (٢٦) عباد الرحمن..... ١٤٩
- (٢٧) عاقبة التكبر والفساد..... ١٥٥
- (٢٨) إنه قلب واحد..... ١٥٧
- (٢٩) الأسوة الحسنة..... ١٦٠
- (٣٠) التوبة..... ١٦٤
- (٣١) الإيمان والاستقامة..... ١٦٧
- (٣٢) نعمة الإيمان..... ١٧١
- (٣٣) الفرار إلى الله..... ١٧٣
- (٣٤) ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾..... ١٧٥



- ١٧٧..... القسم العظيم (٣٥)
- ١٨٠..... مثل الحياة الدنيا (٣٦)
- ١٨٣..... أثر الإيمان بالقدر (٣٧)
- ١٨٥..... محاسبة النفس (٣٨)
- ١٩٠..... خطر الانشغال بالأموال (٣٩)
- ١٩٣..... أدقُّ الحساب (٤٠)
- ١٩٧..... خاتمة

صدر للمؤلف

أولاً - السُّنَّة المطهرة

- ١ - الجامع بين الصحيحين (٥ مجلدات).
- ٢ - الوافي بما في الصحيحين.
- ٣ - زوائد السُّنن على الصحيحين (٧ مجلدات).
- ٤ - زوائد الموطأ والمسند على الكتب الستة (٣ مجلدات).
- ٥ - زوائد ابن خزيمة وابن حبان والمستدرک على الكتب التسعة (٣ مجلدات).
- ٦ - زوائد السُّنن الكبرى للبيهقي على الكتب الستة (٣ مجلدات).
- ٧ - زوائد الأحاديث المختارة للمقدسي على الكتب التسعة.
- ٨ - تحقيق الجميع بين الصحيحين للموصلي (في مجلدين).
- ٩ - العناية بالأدب المفرد للإمام البخاري.
- ١٠ - تحقيق مشارق الأنوار للقاضي عياض (٣ مجلدات).
- ١١ - جامع الأصول التسعة (١٤ مجلداً).
- ١٢ - مسند الإمام أحمد (محذوف الأسانيد والمكررات) (٦ مجلدات).
- ١٣ - معالم السُّنَّة النبوية (٣ مجلدات).
- ١٤ - الأحاديث النبوية الكلية.



ثانياً - في السيرة النبوية الشريفة

- ١ - من معين السيرة.
- ٢ - من معين الشمائل.
- ٣ - من معين الخصائص النبوية.
- ٤ - السيرة النبوية (تربية أمة وبناء دولة).
- ٥ - سيرة النبي ﷺ في بيته.
- ٦ - تحقيق المواهب اللدنية للقسطلاني (٤ مجلدات).
- ٧ - أضواء على دراسة السيرة.
- ٨ - هكذا فهم الصحابة،
- ٩ - أهل الصفة (بعيداً عن الوهم والخيال).
- ١٠ - الغرائق، (قصة دخيلة على السيرة النبوية).
- ١١ - المذهب من الشفاء للقاضي عياض.

ثالثاً - مشروع تقريب تراث ابن القيم رحمته الله:

صدر منه عن المكتب الإسلامي

- ١ - تقريب طريق الهجرتين.
- ٢ - الوابل الصيب من الكلم الطيب.
- ٣ - سيرة خير العباد.
- ٤ - البيان في مصائد الشيطان.
- ٥ - القضاء والقدر.
- ٦ - قل انظروا.



- ٧ - فضل العلم والعلماء.
- ٨ - الطرق الحكمية في السياسة الشرعية.
- ٩ - الهدى النبوي في العبادات.
- ١٠ - الهدى النبوي في الفضائل والآداب.
- ١١ - الروح.

وصدر عن دار القلم:

- ١٢ - إعلام الموقعين (٤ مجلدات).
- ١٣ - طب القلوب.
- ١٤ - الجواب الكافي (الداء والدواء).
- ١٥ - المذهب من مدارج السالكين.
- ١٦ - فضل الصلاة على خاتم الأنبياء.
- ١٧ - فصول في الاعتقاد.
- ١٨ - زاد المعاد (تحت الطبع).

رابعاً - في الرقائق والأخلاق:

- ١ - مواعظ الصحابة.
- ٢ - المذهب من إحياء علوم الدين (في مجلدين).
- ٣ - تحقيق رسالة (شرح المعرفة) للمحاسبي.
- ٤ - تهذيب حلية الأولياء للأصبهاني (٣ مجلدات).
- ٥ - سلسلة مواعظ السلف: صدرت في عشرين عدداً؛



- مواعظ الإمام الحسن البصري.
- مواعظ الإمام سفيان الثوري.
- مواعظ الإمام عمر بن عبد العزيز.
- مواعظ الإمام مالك بن دينار.
- مواعظ الإمام سلمة بن دينار.
- مواعظ الإمام إبراهيم بن أدهم.
- مواعظ الإمام عبد الله بن المبارك.
- مواعظ الإمام الفضيل بن عياض.
- مواعظ الإمام الشافعي.
- مواعظ الإمام أبي سليمان الداراني.
- مواعظ الإمام الحارث المحاسبي.
- مواعظ الشيخ عبد القادر الجيلاني.
- مواعظ الإمام ابن الجوزي.
- مواعظ شيخ الإسلام ابن تيمية.
- مواعظ الإمام ابن قيم الجوزية.
- مواعظ الإمام الغزالي.
- مواعظ الإمام أحمد بن حنبل.
- مواعظ الإمام زين العابدين.
- مواعظ الإمام الجنيد.
- مواعظ الإمام الأوزاعي.



خامساً - دراسات جمالية

- ١ - الظاهرة الجمالية في الإسلام.
- ٢ - ميادين الجمال.
- ٣ - التربية الجمالية.
- ٤ - الجمال في منهج الإسلام وتشريعه.
- ٥ - الفن الإسلامي (التزام وإبداع).

سادساً - موضوعات أخرى

- ١ - محبة الله ورسوله شرط في الإيمان.
- ٢ - الفرائض فقهاً وحساباً.
- ٣ - نظرات في هموم المرأة المسلمة.
- ٤ - الإمام الغزالي (سلسلة أعلام المسلمين).
- ٥ - الإمام ابن قيم الجوزية (سلسلة أعلام المسلمين).
- ٦ - الإمام ابن الجوزي يتحدث عن نفسه (تحت الطبع).
- ٧ - الإسلام دين التيسير.
- ٨ - رضيت بالإسلام ديناً.
- ٩ - نداء الإيمان في القرآن.
- ١٠ - فصول في إصلاح النفس والمجتمع.
- ١١ - الصلاة الصلاة (آخر ما تكلم به النبي ﷺ).
- ١٢ - في سبيل حياة اجتماعية أمثل.

